كولن ولسون
الجنس
و
الشباب
الذكي
ترجمة
أحمد عمر شاهين
Bibliotheca Alexandrina
0122202

كولن ولسون

الجنس و الشباب الذكي

ترجمة

أحمد عمر شاهين

مركز



الجنس والشباب الذكى

تــــأليــــــــــف : كــولـن ولســون
ترجمــــــــــة : أحمد عمر شاهين

النــاشـــــــــر : مركز الحضارة العربية للاعلام والنشر

الجمع والصف الالكترونى : مركز الحضارة العربية للاعلام والنشر

٤ شارع العلمين - ميدان الكيت كات - جيزة
ت : ٣٤٤٨٣٦٨

رقم الإيــداع : ٩٦/٥١٣٦

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-5121-85-X

الجنس والشباب الذكى

ترجمة كتاب

`ex & Intelligent Teenager

By Colin Wilson

Arrow Books 79 G.B

ترجمة : أحمد عمر شاهين

تقديم

تساءل الكاتب الإنجليزي " تشيسترتون" ذات يوم " لماذا يمتلئ العالم بأطفال اذكياء وكبار فاشلين"؟.

ومن خبرتي الشخصية، أرى أن بوادر الفشل تبدأ في العشرينيات من العمر، وتتصاعد حتى تخنق الذكاء الحقيقي والتعاطف مع الآخرين، عند سن الثلاثين.

سنوات الشباب الأولى سنوات صعبة، لأنها تشهد المعركة الحقيقية بين النبوغ والضحالة، وفي العادة تفوز الضحالة.

اعتاد أحـد أعمـامي أن يؤكـد لـي أن مـن هـو دون الثلاثـين، لا يمتلـك المنطـق والإدراك السـليم للأمور. كان رجلاً حلو المعشر، وشخصية لطيفة، لكن كل مـايؤمن بـه كـان يجعلنـي أرتجـف فزعـاً: العناد، المعرفة بالعالم، والإدراك السليم. (حين كبرت أدركت أن كثيراً من معلوماته كـانت زائفـة). اعتدنا أن نتناقش طويلاً حول الحياة والخيال، وكان يجعلني أشعر دائماً بأني غبي وقليل الخبرة. أسـوأ مافي الأمر أن جزءاً معيناً في داخلي كان في صفه، ويدرك أن العالم مكان صعب وقاس ولا وقت فيه لأحلام اليقظة. ولكن ظلت هناك نزعة تقاوم هذه الحكمة الفائقة وترى أن العـالم إذا كـان بالشـكل الذي يصوّره عمي.. فالأفضل أن أنتحر.

لكن ماكان يقوله يجد صدى لدى كثير من الشباب الذين تحدثت إليهـم. فـلا يوجـد مـن هـو في سن الخامسة عشر ويعرف شيئاً عن العالم أو الحياة، وأن جميع من هم تحت العشرين يُعتـبرون أفضـل قليلاً من الأغبياء، وأنهم حين يصلون إلى الثلاثين سينظرون إلى شبابهم المبكر بابتسامة ساخرة.

وكنت أناقش نفسي محنقاً، وتأتي إجابته دائماً: سترى الأشياء مختلفة حين تكبر.

ولقد كبرت، ويسعدني أن أقول أن كل كلام عمي كان جملة من الأكاذيب، وكنت مغفلاً بـأني تأثرت بما كان يقول.

الكبار عادة، في حيرة فى حياتهم، مثل الشباب، لكنهـم أقـدر مـن الشـباب علـى إخفائهـا، لقـد انتهى الأمر وعرف الحكاية ويبذل جهده لنسيانها، وبعضهم محتار فى هذا النسيان.

صحيح أن لكبر السن مزايا معينة، فالتعامل مع العواطف يغدو أسهل، والإرتباك والحيرة أقل، ولا يثيران الإهتمام بدرجة كبيرة.

في شبابي مثلاً، كان أكثر مايثيرني "ويقلقني" أن أتحدث إلى شخص ما فلا يصغى أو يتجـاهلني، وأجد نفسي احمّر خجلاً حتى أغدو كاشارة المرور، وأن كل شخص في الغرفة ينظر نحوي. الآن أجد أن ذلك الأمر لا يزعجني ولا يهمني كثيراً. كذلك كان النقاش مع شخص غبي يغمرني بالقلق، وإذا اتهمني بأشياء أعرف أنها تافهة، فإن جزءاً ما بداخلي يبدأ فى التساؤل ماإذا كان هناك حقيقة فيما يقوله.

مازال الأغبياء يسببون لي القلق، لكن فقط إذا احتكوّا بي أو هـاجموا كتبي، لكـن لـم يعـد لهـم تلك القوة الشريرة التى كنت أحس بها وتؤرقني.

هناك شئ واحد أود أن أؤكده: الناس لا تغدو أعقل أو أكثر حكمة حين تكبر، بل ربما يصبحون أكثر غباءً. إنهم يتعلمـون كيـف يخفـون شـكوكهم بـالتصرف كـالآخرين أو بـالتلفظ بإصطلاحـات عادية، وأحياناً بالإغراق فى الخمر للشعور بالثقة فى النفس. عالم الكبار خدعة ضخمة مقنعـة. وهـم بهذا يخدعون أنفسهم بالدرجة نفسها التى يخدعون بها الآخرين.

يبدو فى كلامي نوع من التجاوز وعدم الإنصاف، فهناك الكثير من الكبار الأذكياء والمتسامحين الطيبين، لكن ذلك ليس ماأهدف إليه. الشباب والأطفال يمتلكون أشياء فقدها معظم الكبار تماماً بلا أمل فى استعادتها، فقد وصل الكبار إلى قبول نوع معين من الهزيمة وتصالحوا معها. وكانت هذه أحد الأشياء التي تحيرني وأنا طفل وأنا لم أرَ شخصاً كبيراً أود أن أكون مثله، وكان ذلك إحساساً غريزياً سليماً، فالآن وأنا كبير مازلت لا أرى مثلاً يُحتذى من الكبار وأود أن أكون مثله، كلهم يبدون لي أناساً عاديين متوسطين يستحقون الرثاء.

من ناحية أخرى، بصفتي كاتباً، فأنا أذهب غالباً لإلقاء محاضرات فى المدارس والجامعات، ولذا فأنا على إتصال بأعداد لابأس بها من الشباب، وأجد في ذلك دائماً تجربة مفيدة. بالطبع هناك شباب أغبياء بالدرجة نفسها التى يوجد بها كبار أغبياء، وعلى كل حال فهم لن يقرأوا هذا الكتاب.

جميع الشباب الأذكياء يتشابهون فى شئ واحد: فهم يجدون الحياة جميلة وقاسية، ويعيشون فى مشكلة محيّرة متشابكة من العواطف تجعلهم أحياناً مفككين غير مترابطين، ولكن تحت هذا الظاهر هناك بركان من النشاط العقلي يحاول أن يشق طريقه ويخرج إلى ضوء النهار، ولسوء الحظ، فإن عليهم أن يواجهوا مؤامرة الكبار عليهم، بالإضافة إلى مشاكلهم العاطفية الخالصة.

وكلما زاد غباء الكبار، حاولوا أكثر أن يؤثروا عليك بسلطتهم، وكلما أكدوا لك أن مشاكلك العاطفية سببها صغر سنك وقلة خبرتك، فمن الأفضل ألا تجادلهم، لأنك ستسبب لهم التعاسة. ولكن يجب عليك أن تعلم أنه كلما ازداد غباء المرء احتاج لإثبات سلطته بدرجة أكبر. (وهذه معلومة مجانية لمن ساء حظه وعمل في القوات المسلحة).

ومن أغرب الأمور أن معظم الكبار قد نسوا ماكانوا عليه أيام الشباب حتى أنهم يحسدون الشباب. نسوا المشاكل التي لا تنتهي، والحيرة البائسة والشعور المزعج أن تنحصر بين عالمين: الطفولة والمراهقة دون أن تنتمي لأحدهما. يقرأون فى صحفهم عن الحفلات التي يقيمها الشباب طوال الليل وتدور فيها المعاكسات الجنسية، فيتخيلون أن حياة الشاب هي سلسلة طويلة من الرقص والمرح والجنس.

أتذكر حفلة ذهبت إليها منذ عدة سنوات حيث كانت أعمار الضيوف تتراوح بين السادسة عشر والستين. وانقسم الضيوف إلى قسمين، من هم في الخامسة والعشرين فأقل، ومن هم فوق الخمسين. معظم الكبار غادروا الحفل مبكرين - قبل منتصف الليل - لم يحدث شئ في الحفل سوى أن فتاة قد سكرت فخلعت "جونلتها"، النتيجة أن من هم فوق الخمسين ظلوا حتى الرابعة صباحاً يكاد يقتلهم النعاس، على أمل أن يروا حفلة جنسية تبدأ في أي وقت. وبدوا جميعاً وقد أصابهم الإعياء وخيبة الأمل حين جرّوا أنفسهم أخيراً مع بقيتنا دون أن يحدث شئ مما توقعوه. (أحياناً تحدث بعض الأشياء المنافية للآداب في الحفلات لكن ليس بالدرجة التي يعتقدها الكبار).

لكني مازلت لم أوضح الهدف الأساسي الذي أسعى إليه.

معظمنا يمتلك شخصية مستقلة خاصة به، ومالا نعرفه أن هذه الشخصية تتصرف - تقريباً بشكل كامل - مقلدة الآخرين ومقتدية بهم.

كثيرون قد يتصرفون بطريقة شخص يعجبون به - أذكر تلميذاً في المدرسة بدأ يمشي بشكل غريب مقوساً ساقيه مقلداً نجماً سينمائياً يحبه من رعاة البقر - لكننا مازلنا نعتقد أن شخصيتنا هى ملكنا، لكن كل شئ نقوله أو نفعله أو حتى نفكر فيه مستعار من الآخرين، ابتداءً من طفولتنا المبكرة.

من الصعب أن نصدق ذلك، لكنه صحيح.

هناك مثلاً، بعض الحالات الموثقة لأطفال نشأوا وسط الذئاب والقرود، لكنهم لم يكبروا ليصبحوا متفوقين كطرزان مثلاً، بالرغم من أسرهم وهم فى سن صغيرة، فقد ظلوا ذئاباً أو قروداً بقية حياتهم.

وقد تتبع سير وليم سيلمان مثل هذه الحالات فى الهند سنة ١٨٤٩، وقد أخبره أحد الجنود انه رأى قرب "كاندور" ذئباً كبيراً يتجه إلى النهر ليشرب، يتبعه ثلاثة جراء وولد، وحاولوا أن يفصلوا الولد عن الذئاب، إلا انه جرى بسرعة كبيرة، ولكنهم استطاعوا أسره أخيراً. وحسب تقرير "سيلمان" فقد كان مظهره مقرفاً وكريها وعاداته قذرة، في البداية لم يأكل سوى اللحم النئ والعظم، وتعّود أخيراً على أكل الخبز، لكنه لم يرغب في ارتداء الملابس، وحين أعطوه لحافاً ليتغطى به مزقه قطعاً وأكل جزءاً منه. كما كان يأكل مع الكلاب ولم يطور عادات إنسانية، ولم يتكلم أبداً، إلا قبل دقائق من وفاته بعد ثلاث سنوات من أسره، حين قال أن رأسه يؤلمه وطلب أن يشرب.

ويذكر التقرير نفسه حالة فتاة في التاسعة من عمرها، وُجدت وسط القرود، وأصبحت قردة من كل النواحي.

وحين يدقق الآباء والأمهات فسيلاحظون الأشياء نفسها على أطفالهم وهم صغار، فكل كلماتهم وأفعالهم وسلوكهم هي تقليد للأبوين، قد يبدو الطفل للآخرين بأن له شخصية مستقلة لكن الأبوين يعرفان أكثر.

والطفل الذي ينشأ في عزلة تامة، دون اتصال بمخلوقات أخرى، سيصبح عبيطاً في سن الخامسة لأنه لا يوجد من يقلده أو يقتدي به.

وهذا أمر شديد الأهمية، لأنه يعني أن شخصيتك وقدراتك ترجع كلية إلى المحيطين بك. أنت لا تتعلم فقط لغة والديك أو تقتدي بتصرفاتهما، لكنك تتعلم أيضاً أن ترى العالم من خلال عيونهما، مهما كانت درجة اختلافك عنهما أو معهما، وكأنهما قد وضعا نظارة سوداء على أنفك تظل ثابتة هناك بقية عمرك.

هل تذكر الأحاسيس التى كانت تنتابك في العيد وأنت طفل صغير؟ وبهجة التجول في المحـلات لكبيرة المملوءة بالملابس والمأكولات، والفرحة التي تعم الجميع؟ وهـل تتذكـر جمـال كتـب الأطفـال بصورها ومناظرها الطبيعية وحبالها؟ والضيق الشديد الذي كنت تشعر به حين يحين موعد العودة إلى المدرسة في بداية العام الدراسي الجديد؟.

وأنت طفل كنت ترفض العالم الممل الذي يقضي به الكبـار حيـاتهم، ترفضـه لأن غريـزة عميقـة داخلك تخبرك بأن الحياة لا يمكن أن تكون موحشة ومملة كنظرة والديك إليهـا. كـان عمـي سـيقول لك أن كل هذا مجرد هروب وأن عليك أن تواجه الواقع. وسيقول لك ذلك معظم الكبار، ولكـن إذا كنت ذكياً فلن تصدقهم. إنهم يعتقدون أن الحياة مملة ومقبضة بسبب النظارات السوداء التي وضعها آباؤهم على أنوفهم. كانوا يعرفون الحياة بشكل أفضل وهم أطفال، وكان لديهم تلك الرؤية المبهجـة فى الأعياد، أو عند قراءة قصة مغامرات، ثم كبروا ونسوا ذلك، ولم يخامرهـم الشك أنهم ينظرون إلى الحياة عبر منظار أسود.

هل فهمت ماأقصده؟.

تخيل لو كنت كلباً تستلقي على سجادة صغيرة تحملق في الآدميين في غرفـة الجلـوس، لـو نشـأت وسط الكلاب فسترى المشهد من خلال رؤيتهم له. لو فرغّت ذهنك من كل شئ ونظرت حولك في الغرفة دون التفكير في أي شئ فستحصل على فكرة غامضة عما يراه الكلب حوله.

وهذا الكتاب الذي تقرأه سيبدو آنذاك مجرد شئ آخر مثل المنضدة أو المدفأة، باختصـار العـالم لا معنى له بالنسبة لكلبك، لأن الكلب لم يتعلم كيف ينظر إلى العالم.

المعنى.. هو شئ لابد أن تتدرب عليه حتى يمكنك أن تراه.

ونحن لسنا بأفضل بكثير من الكلاب، فالعالم يبدو لنا بلا معنى أكثر بكثير مماهو في الواقـع. ولـو نشأت في رعاية رجل سوبرمان، فإن الغرفة نفسها التي تجلس فيها الآن ستدهشك بجمالهـا وإثارتهـا، وستبدو لك الحياه كما كنت تراها في العيد وأنت صغير.

لكن ما علاقة كل هذا بالجنس؟.

علاقة كبيرة جداً فلا يمكننا فهم الجنس دون الإقتراب منه بهذه الطريقة.

قد تشتري كتاباً في الجنس مثل الكتاب الذي أعده "كينزي" عن "السلوك الجنسي للأنثى" وتتعلم منه بعض الحقائق الطريفة عن ممارسة الجنس قبل الـزواج في أمريكـا، أو قـد تشـتري "دائـرة معـارف المعرفة الجنسية" وتكتشف بعض المعلومات عن العادات الجنسية عند سكان جزر البحار الجنوبية مثلاً، كل ذلك يعطيك بعض المعلومات الجنسية وليس معرفة جنسية عن الجنس الذي لم تعرفه بعد.

من ناحية أخرى، قد تشتري كتاب "باربارا كارتلاند" عن "الجنس والشباب" وتقرأ فيه هذه الفقرة "أمك هي ألطف الفتيات اللواتي عرفتهن. حاول أن تخبرها كم هي رائعة، وأنها تعني إليك الكثير، قل لها أني أحبك وهي ستمد لك يد المساعدة في عملية النمو. كان ونستون تشرشل أحد أعظم رجال القرن العشرين، يبكي غالباً حين يتأثر بشكل ما، ولم يكن يخجل من ذلك، لماذ إذن تخجل من إظهار مشاعرك".

لست متأكداً لمن تكتب هذه السيدة، ولكنني لم أقابل شخصاً مأفوناً وغبياً يأخذ كلامها بشكل جدي .... كل كلامها هذا ليس له علاقة بالجنس أو مشاكله.

الجنس هو أحد أقوى الرغبات التي يجربها الإنسان، إنه يقودنا ويسيطر على حياتنا، بل والأكثر من ذلك، فإن الشباب إذا فقد القدرة على الإستمتاع بالأعياد كما يحدث وهم أطفال، فإنهم قد اكتسبوا قدرة أخرى بإمكانها أن تجعل العالم يبدو أكثر معنى وبهجة مما كان يبدو للطفل، وأعني بذلك مقدرة الدخول في تجربة جنسية. إن التجربة الجنسية تشكل لـ ٩٩٪ من البشر أعمق التجارب وأكثرها حدة في كل حياتهم لو امتلكوا الذكاء لإدراك معناها الكامل، ولفقدت مقولة "تشيسترتون" قيمتها عن الشباب الأذكياء والكبار البلداء، ولتغيرت كل الحياة الإنسانية.

* * *

أنا شاعر، لا أحب الناس بالشكل الذي هم عليه، وأتمنى أن يمحقهم الله ويخلق خلقاً جديداً، فهم مخيبون للآمال ومقبضون بدرجة كبيرة. وحين يتهمني النقاد بأني مشغول بالجنس، أعترف بذلك بترحاب، فهو أحد الموضوعات القليلة التي يجب أن ينشغل بها الأذكياء. دعنا نفكر بالجنس ونتحدث عنه فليس هناك موضوع على وجه الأرض أكثر أهمية منه، وقد يكون مفتاحاً أو دليلاً لشئ ما.

إن الشعراء والفلاسفة كانوا يبحثون عن معناه منذ تعلم الإنسان أن يفكر، وتجاهل الأغبياء الذين يخبرونك أن تدع الجنس لغرف النوم ولا تتحدث عنه، نظرة واحدة إليهم ستقنعك أنهم لو فكروا لأنفسهم بطريقة صحيحة لما أصبحوا أناساً من الدرجة الثانية.

وعلى كل حال، هناك سبب آخر يحتم علينا أن نفكر في الجنس، فقد أصبح موضوعاً كثُر الحديث عنه بين الشباب والمراهقين بدرجة كبيرة بلهجة الواثق المجرب، وقد يصدمنا هذا القول لكنه صحيح.

قرأت في جريدة "الجارديان" العنوان التالي:- **٣٠٪ من البنات غير عذارى.**

والمقال يتحدث عن فتاة في السابعة عشر كتبت مقالاً في مجلة تسمى "تخطيط للعائلة" تقول فيه أن معظم صديقاتها قد فقدن عذريتهن في سن الثامنة عشر وأن المراهقة بعد بلوغها بشهرين قد تمارس الجنس وأن ٣٠٪ من صديقاتها لسْنَ عذارى.

ويقرر د. البرت اليس أحد محرري "موسوعة السلوك الجنسي" أنه في نهاية القرن سيعتبر كل من لم يمارس الأوضاع الجنسية المختلفة مع النساء قبل الزواج إما عُصابياً أو منحرفاً.

كما تحدَّث أحد الأطباء في المؤسسة الطبية البريطانية حين أثير موضوع الجنس بين المراهقين عن ولد وبنت تقابلا في غرفة الإنتظار في عيادته لأول مرة، ولم يكن أحدهما يعرف الآخر، وأنهما تبادلا الجنس قبل أن يأتي دور الولد للكشف عليه بعد خمس دقائق.

وبالرغم من كل هذا، تكتب "باربارا كارتلاند" في كتابها "الجنس والشباب" "أؤكد لكم أن الأولاد الذين تربوا جيداً لا يفكرون كثيراً في البنت التي تمنحهم قبلة عند أول لقاء!!؟".

وتضيف: "قال لي صديق ذات يوم عن فتاة يعرفها كلانا" لقد دهشت حين تركتني أقبلها عندما أوصلتها إلى البيت. لم يبد عليها أنها من ذلك النوع".

ولقد عرفت بعد ذلك أن الفتاة قد تملكها الزهو وأُثيرت لأنه دعاها للخروج معه وهي لم تكن من "ذلك النوع" لكنها فكرت أنه يتوقع أن تمنحه قبلة، فأعطتها له، وبقدر معرفتي لم يهتم بها منذ ذلك الحين". ربما لا تعرف الكاتبة ذلك، لكن الأيام التي كانت لا تفكر فيها الفتاة بتقبيل الفتى في أول لقاء لهما قد ولّت وعفى عليها الزمن. وإذا شكّت في كلامي فلتنظر أمام أية دار للسينما تعرض فيلماً لجيمس بوند مثلاً لترى العجب. ولقد أشار "أيان فليمنج" مؤلف كتب "جيمس بوند" إلى هذه النقطة قبل وفاته بقليل قائلاً" حلَّ الإغواء في هذه الأيام مكان المغازلة".

بإختصار، حان الوقت ليتعلم كل فرد التفكير بذكاء في الجنس.

فلا يوجد موضوع محاط بالغباء والأكاذيب قدر الجنس، ومن المستحيل تقريباً أن يعرف الشباب اليوم الحقيقة الصحيحة عن الجنس. فهم محاصرون بوجهتي نظر متميزتين ومتضادتين.

إحداهما من كتب وأفلام المغامرة كجيمس بوند وميكي سبيلين ومن سبقهم أو من يقلدهم. ومن هذه الكتب والأفلام حصلوا على انطباع بأن الجنس هو رياضة طبيعية خالصة كعمليات الصيد الجماعية، ويُظهر الجيل الجديد تعلمه الدرس جيداً من هذه الوسائل حين تُغتصب فتاة على يد بعض الشبان في إحدى الحدائق.

ووجهة النظر الثانية أن الشباب نفسه يبدو ميالاً إلى أكثر أنواع العاطفة مرضاً. فالأغاني تقول له "إبك"، وهم يغنون عن تعاسة وبؤس الحب وهجران الحبيبة، تقول إحدى الأغاني "ظللت أبكي منذ

تركتيني ياحبيبتي".. كل العواطف وراء هذه الأغنيات الشعبية زائفة لدرجة تبعث على الغثيان، وفي مجتمع سليم فإن مؤلفي هذه الأغاني لابد أن يوضعوا في السجن.

فتحت التليفزيون منذ أيام فسمعت مطربة تغني: الناس الذين يحتاجون الناس ، هم أسعد الناس.

لم أسمع في حياتي كذبة أكبر من هذه.

أعرف الكثيرين الذين يحتاجون الناس، لكنهم كلهم مرضى نفسيون. من يحتاج الإعتماد على الناس ضعيف. معظم العظماء من الرجال والنساء لا يحبون الناس بشكل خاص، لأن الإعتماد على الآخرين في الحياة يكشف بأن رأسك فارغ.

الشاعر الجيد يحتاج الجمال، والموسيقار الجيد يحتاج للموسيقى والعالِم الجيد يحتاج العلوم والرياضيات ولكن من يحتاج للإعتماد على الناس لا يساوي مليماً.

وهكذا فإن الشباب يسبحون في بحر موحل. ولا أحد على استعداد لقول الحقيقة.

هذا الكتاب سيحاول قول الحقيقة عن الجنس، بقدر ماوصلت اليه معلوماتي بالطبع، وهدفي الرئيسي أن أقنعك بأن تمارس تفكيراً غير تقليدي، وهو الأمر الذي تركه الكبار الأفاضل، منذ زمن طويل.

فصل الاول

تاريخ لعلاقات الجنسية

لا نعرف على وجه التأكيد طبيعة العلاقات الجنسية للإنسان الأول، ولكن من المرجح أنه لم يكن يهتم بما نعرفه اليوم بالزواج، ولا حتى بالإخلاص والوفاء. ويعتقد عالم السلالات "باتشوفين Bachofen "أن الإنسان الأول كان يُشبع غريزته الطبيعية مثل الحيوان، دون روابط دائمة مع أنثى معينة".

ويجب أن نضع في الإعتبار أن أحداً لم يكن يعلم آنذاك، العلاقة بين الفعل الجنسي وإنجاب الأطفال.

كان الذكر القوى، وهو أكثر الصيادين نجاحاً، يحتكر أجمل إناث القبيلة، بالضبط كما كان يسمح له بأن يختار أفضل قطع اللحم. ولكن لم يكن ذلك يتم كل يوم، حيث أن هناك الكثير من الصيادين المهرة في القبيلة، فالحظوظ تتفاوت بالنسبة للرجل والمرأة في تبادل الشركاء من يوم لآخر.

وافترض الإنسان الأول أن الأطفال يأتون عن طريق السحر وبعض الفضل من الآلهة، ولذا شاعت عبارة "الأطفال هبة من الله". ومازال سكان استراليا الأصليين لا يرون، حتى الآن، علاقة بين المعاشرة الجنسية وإنجاب الأطفال.

تعتبر الغيرة الجنسية قضية مسلم بها في مجتمعنا اليوم، ونجد من الصعب أن نفهم كيف استطاع الإنسان البدائي التحرر منها.

ومع ذلك، فمازال "الإسكيمو" يمارسون عادة إعارة زوجاتهم إلى الضيوف، وبعض القبائل من سكان استراليا الأصليين يمارسون عادة تبادل الزوجات فيما بينهم.

تعتبر الغيرة قضية احتماعية، بالرغم من أننا قد لا نرى العلاقة من أول نظرة. وقد أدرك علماء الحيوان في السنوات الأخيرة أن الجنس عند الحيوان هو جزء من الحافز الإحتماعي المتعلق بالمكان، فأقوى فرد في قبيلة القرود يستاء من أية محاولة لسرقة أنثاه، لأن في ذلك تحد لسلطته الإحتماعية وليس لأن ذلك يثير غيرته الجنسية. ولإنشغال الإسكيمو الدائم بمكافحة قسوة الطبيعة حولهم، فهم أقل اهتماماً بهذه القضايا. ويلعب شبابهم في الشتاء لعبة تسمى "إطفاء النور"، حيث تُطفأ المصابيح واحداً وراء الآخر، ويختار الرجال والنساء، عفوياً، شريكته أو شريكه في تلك الليلة – وواضح أن إطفاء النور بالتدريج، يهدف إلى إثارة حالة من الهياج الجنسي.

هذا النوع من السلوك يبدو طبيعياً بالنسبة للبشر في حالتهم العادية، وهو سبب الإعتقاد بأن الإنسان البدائي لم يعرف شيئاً عن الزواج.

وحين كان البشر بدائيين، كانوا أيضاً واقعيين. فهم يختطفون مايمكنهم الحصول عليه – أقرب امرأة مثلاً – ويسعدون في الحصول عليها.

ولكن مخيلة الإنسان غيّرت كل ذلك. فالرجال الذين لم تكن ظروفهم صعبة، وكانت لديهم طاقة فائضة بعد الصيد وبناء السكن، امتلكوا الوقت لأحلام اليقظة، وبدأوا يفكرون أكثر في المسائل الجنسية، وتفوق أحدهم على الآخر في الصراع فالإسكيمو مثلاً لإنشغالهم الدائم بمكافحة الطبيعة، فهم طيبون ومسالمون، أما الرجال الذين ليس لديهم مايفعلونه، فإنهم يشغلون وقتهم في الصراع.

وبرزت فكرة الملك أو القائد بالتدريج. واخترع الإنسان الآلهة – رهبة أو رجاءً – ثم عيّن الكهنة لخدمتها، وهكذا تحولت العلاقات القبلية من علاقات دافئة وودية تتقاسم طعامها ونساءها، إلى مجتمعات مقسمة إلى طبقات. وأصبح القادة فخورين بمواقعهم، حذرين ممن يتحدونهم، وأصبحت

إناثهم ملكاً لهم، وأية محاولة لسرقة أو إغواء الزوجة تعتبر إهانة مميتة، وهكذا نرى حين سرق "باريس" هيلانة من طروادة قضى اليونانيون عشر سنوات ينتقمون لهذه الإهانة.

من الصعب أن نتخيل الحالة العقلية للإنسان البدائي، فلم يكن لديه علوم أو فنون، وحين تكون الطبيعة خيرة معهم، لم يكن لديهم مايفعلونه سوى ملء عقولهم بالمعارك والأعمال الفذة للبطولة والثأر للإهانات التي تلحق بهم. والوسيلة الوحيدة للمتعة كانت الإستماع إلى المغنيين ورواة الحكايات الذين يتحدثون عن المعارك.

لكن الفراغ الذي أنتج كل هذا الإهتمام بالحرب والملكية، كانت له بعض الآثار الأقل كدراً وحزناً، فلقد قاد بعض الرجال الأذكياء لكشف متعة التفكير من أجل التفكير ذاته. وهكذا اكتشف كل من المصريين القدماء واليونانيين والعرب اكتشافاتهم الخاصة فى العلوم والرياضيات، ووُضعت أسس الفن والشعر.

وهكذا جاءت الخطوة الكبيرة الثانية في تقدم الجنس البشري.

الخطوة الأولى كانت في البداية - قبل مليوني سنة - حين استطاع الإنسان الأول أن يتعلم استخدام قطع العظم كأدوات للدفاع عن نفسه وللصيد مما أدى إلى اختراع الأدوات وبدء عصر البشرية الحقيقي.

هنا تلفت نظرنا ملاحظة مهمة: هذه الشعوب التي كانت مسئولة عن مولد العلوم والرياضيات، كانت أول الشعوب التى اعتبرت اللواط قضية مسلماً بها.

اليونانيون، على سبيل المثال، كانوا يعتبرونه أمراً طبيعياً أن يكون للرجل المتزوج رفيقاً من الغلمان يهتم به حتى أكثر من زوجته. كان الهدف من الزواج آنذاك هو إنجاب الأطفال، وكان والد العروس يقدم مهراً مغرياً للزوج، ولكن كان مكان الزوجة البيت، ولم يكن يُتوقع منها أن تكون شريكة حقيقية لزوجها، كما كان باستطاعته أن يتخذ عددا من العشيقات شرط ألا يكن زوجات لآخرين، أو يختار ولداً جميلاً ذكياً ليصحبه في ساعات فراغه.

وإذا كان الزوج في منصب كبير، فإن والد هذا الغلام يفخر بأن ابنه قد اختير لهذه المهمة، ويُصبح الرجل كأب للولد، يطوّر تفكيره وعواطفه في مقابل الإستمتاع الجسدي. ولم يكن هناك أي خجل من هذه العملية، فقد كان أمراً عادياً أن يكون الغلام موضوعاً للحب والجنس كالمرأة تماماً.

من ناحية أخرى، كانت الفتيات أقل حظاً، فقد كان يُتوقع من الفتاة أن تحافظ على عذريتها حتى الزواج، ثم تكون بعد ذلك مخلصة تماماً لزوجها. وإذا كانت هناك جرائم جنسية في اليونان القديمة، وقد وجدت هذه الجرائم فالطبيعة الإنسانية لم تتغير، كان الضحايا غلماناً صغاراً وليس الفتيات—لو قرأ اليوناني القديم رواية لوليتا لوجدها محيرة.

كما أن الملاحظ بأن هـذه الحضـارات الأولى، التـي أنتجـت الفلسـفة والأدب، كـانت تنظـر إلى الإنحرافات الجنسية كأمر طبيعي. فاليونانيون لم يعتبرونها إنحرافـات، فقـد ارتبطـت بأذهـانهم بـأمور رأوها مفيدة، بالفن والفلسفة والثقافة عموماً، وكانت الثقافـة احتكـارا ذكوريـاً، لقـد وُجـدت المرأة المثقفة لكنها كانت نادرة، وأعتـبرت النسـاء مخلوقـات أقـل درجـة مـن الرجـل، وليـس في مقدرتهـن مشاركة الرجل أهدافه السامية أو أفكاره العميقة. فإذا وجد الرجل رفقه روحية مع غـلام جميـل فمـا الذي يمنع أن ينام معه في الفـراش. وهكـذا فـإن الفكـر اليونـاني والنسـاء لـم يدخـلا في صـراع على الإطلاق.

لم يصل الأمر عند المصريين القدماء والعرب إلى هذه الدرجة في قبول اللواط، لكنه كان موجـوداً ويُعتبر أمراً مفروغاً منه.

ومن الطريف هنا أن نقارن بين العقلية اليونانية والعقلية اليهودية، كان العبرانيون القدماء متعصبين وضيقي الأفق، يهتمون قليلاً بالدين، وكثـيراً بـالصراع فيمـا بينهـم، ولـم ينتجـوا علمـاً أو أدبـاً، وإن انتجوا قليلاً جداً من الشعر، وكانت قوانينهم ضد اللـواط صارمـة أكـثر مـن غـيرهم، وهكـذا يمكـن القول أنه حين يُسمح للخيال أن يتطور، فإن الإنحراف الجنسي يتبع ذلك تلقائياً.

لقد كان الهنود القدماء أناساً مثقفين جداً، وهكذا كان الفرس، ولذا فإن اللواط كان أمـراً عاديـاً في هذين القطرين. (في الطبقات المصورة لرباعيات الخيام كان المحبوب يصور عـادةً كغـلام جميـل في شكل فتاة).

حين نأتي لروما القديمة، فإننا ندخل إلى جو أكثر حداثة. فالمثال اليوناني للحب الروحي السـامي قـد اختفـى، وأصبحـت كلمـة حـب تعنـي الرغبـة الجنسـية، والشـعراء الرومـان - هـوراس وأوفيـد وكاتوللوس وبروبرتيوس ولوكر يشـيوس - رأوا في الحـب نشـوة وتعذيـباً والديـن الرومـاني كـان ذا علاقة وثيقة بالجنس، ورمز القضيب المنتصب كان حاضراً في معظم الرسـومات الرومانيـة، بـل يمكـن القول أن رمز الحضارة الرومانية كان القضيـب المنتصـب، رمـز الحيويـة الخشـنة، والدافـع القـوي للسـيطرة والنصر. وكان اللواط منتشراً ومقبولاً كما كان في الحضارة اليونانية، لكن دون التمسح بالمثالية الثقافية.

وكانت ممارسة الجنس مع الحيوانات، منتشرة وتعتبر أمراً عادياً، كما كانت عند شعب العمونيـين في الشرق، الذين كانوا يعبدون الإله "مولـوك"، وكـانوا يضعـون في معـابدهم بجـانب العـاهرات مـن الإناث والذكور كلاباً مقدسـة ليسـتخدمها العـابدون جنسـياً. وكـانت النقـود التـي يدفعهـا هـؤلاء العابدون توضع علي مذبح الإله في المعبد.

لكن الأمر الطريف في كل هذه الحضارات القديمـة، أن الـزواج كـان يُعتبر أمـراً مقدسـاً، وكـان الهدف منه أن يستمر وجود الجنس البشري، فقد كان عدد سكان العالم منذ ثلاثة آلاف سنة صغـيراً نسبياً، حوالي مائة مليون نسمة، وكان مهماً أن يتزايد عدد السكان. وقد كان الإمـبراطور أغسـطس

في روما القديمة، قلقاً لتناقص عدد السكان – نتيجة لزيادة اللواط والدعارة – مما اضطره لسن قوانين تعاقب الرجل غير المتزوج فوق العشرين، والفتاة غير المتزوجة فوق الخامسة والعشرين، وكذلك قانون لمعاقبة الزوجين غير المنجبين. (لكن كل ذلك فشل في انقاذ الوضع).

وهذا هو السبب في اعتبار الزواج أمراً مقدساً دائماً، وفضيلة ضرورية، فحتى الرومان، الذين كانت نظرتهم متساهلة في كل أمور الجنس، كانت لديهم قوانين قاسية ضد الرجال الذين يحاولون إغواء الزوجات.

من ناحية أخرى، كانت الدعارة مقبولة من كل الحضارات القديمة، اليونان والرومان وحتى العبرانيون كانت لديهم عاهرات المعابد – بمعنى كاهنات يقدمن أنفسهن لطالب المتعة، مقابل نقود للآلهة والمعابد. وهكذا قُسمت النساء في معظم الحضارات القديمة إلى نوعين منفصلين تماماً: الزوجات الفاضلات ثم العاهرات. – وكانت المحظيات يشكلن فريقاً ثالثاً –، وإذا أراد الروماني متعة الجنس فإنه يذهب إلى عاهرة أوإلى عشيقته أو غلامه. فزوجته هي للإنجاب فقط.

فالجنس ينقسم إلى قسمين: المتعة والإنجاب. العشيقة والزوجة، الجنس المنحرف والجنس العادي، وكلها متصلة بعضها ببعض. كانت الزوجات أكثر قليلاً من ربات بيوت ومنجبات للأطفال.

ثم جاءت الثورة الجنسية التي أحدثتها المسيحية. لكن قبل الحديث عنها لابد أن نؤكد أن معظم الأديان السابقة على المسيحية كانت تهتم بالجنس. فالإنسان البدائي، سواء عاش في مصر أو اليونان أو المكسيك، اعتبر القضيب عضواً مقدساً، والمعابد القديمة مملوءة بالرموز القضيبية. وحسب الإسطورة الهندوسية فإن الإله "شيفا" فقد عضوه التناسلي بسبب لعنة نزلت عليه، فسقط منه وغاص في الأرض، ثم نما بشكل ضخم حتى وصلت جذوره إلى مركز الأرض ورأسه إلى السماء، ثم تحول إلى عمود من النار تسبب في الزلازل والكوارث الطبيعية، وذهبت اثنتان من الآلهة، فشنو وبراهما لتبحثا مسألة حجمه، واكتشفتا انه لانهائي، فطلبتا من الآلهة الكبيرة ديفي Devi أن تستقبل هذا العضو في فرجها، فوافقت وأنقذت العالم، ونصحت البشر بألا يلعنوا القضيب ثانية وأن يعتبروه مقدساً.

هذه هي الأسطورة التي ابتدعها الهندوس لتفسير سبب امتلاء دينهم بالأسرار الجنسية.

وفي كثير من الأديان القديمة، كان يُرمز للقضيب بالثعبان وأحياناً بالسمكة (والسبب في ذلك واضح، فالسمكة لامعة وزلقة، والثعبان يستطيع أن يدخل الأماكن الخفية). وكان الثعبان أحد الرموز الأساسية للإله اليوناني ديونيسيوس (باخوس) إله الخمر، مع أنه يرسم أحياناً كحمل أو ثور بري، كل هذا يوضح، حتى لو لم يكن لدينا شواهد أخرى، بأن ديانة باخوس كانت جنسية في معظمها، وفي طقوسها يتعرى العابدون ويسكرون ويرقصون. ثم – كالإسكيمو – يختار كل منهم رفيقته.

كل ذلك كان طقساً في عبادة الآلهة، لقد اعتقدوا أن شعورهم بالنشوة يؤكد أن إلههم قد نزل بينهم.

وهناك في أمريكا اليوم من يدينون بعبادة الثعبان، يحملون الثعابين ويدورون بهـا حتى يصلوا إلى درجة عالية من التهيج الجنسي، ولكن برغم عدم وجود طقوس جنسية مفضوحة هنا، فإن الباحث وليم سارجنت في كتابه "معركة العقل" يروي على لسان أحد الشباب بأنه يذهب إلى هذه الحفلات الدينية خصيصاً لإغواء الفتيات وهن في هذه الحالة من الهستيريا.

هذا النوع من التخلي الكامل عن شخصية المرء العادية، مرتبط حتما بالتهتك الجنسي.

معظم الديانات القديمة، كان فيها مثل هذه العناصر الجنسية، وجاءت المسيحية لتغيّر كل ذلك. وقد أصبحت موضة، الآن، أن يسخر الناس من محاولة المسيحية تحويل الجنس إلى خطيئة، لكن الأكثر أهمية أن نفهم ذلك..

لم توجد ديانة سابقة تشبه الديانة المسيحية لقد ظن اليونانيون أن العالم التحتي هو حرفياً تحت الأرض، وأن الآلهة تسكن جبل الأولمب، وتتصرف مثل البشر العاديين، بالغيرة والثأر والإغواء والشجار، والشئ نفسه أيضاً بالنسبة لآلهة بلاد الشمال في أوروبا بقبائلها المختلفة. وقد كان الدين الهندوسي أكثر عمقاً، لكن فيما يخص الناس العاديين فقد كان ديانة أخرى من الآلهة والشياطين والتنافس اللانهائي.

اليهود وحدهم كانت لديهم ديانة تؤمن بالإله الواحد، لكن كانت عقولهم ضيقة الأفق في تفسير النصوص حرفياً، فقد اعتقدوا بأنهم شعب الله المختار، وأن إلههم يتدخل في شئون الحياة اليومية لينتصر لهم ضد الشعوب الأخرى... وهكذا.

لكن الجنس البشري كان ينضج ببطء، والديانات التى كانت تناسب الفلاحين والمحاربين البسطاء، لم تعد تحقق المطالب الداخلية لأناس بدأوا يتعلمون استخدام خيالهم. فجاءت الديانة المسيحية، أعمق وأعظم من كل الديانات التى سبقتها، عدا البوذية، وإن كان هذا احتمال مشكوك فيه.

لقد كانت مختلفة عن الديانات القديمة، اختلاف الموسيقى الكلاسيكية عن الجاز، أو اختلاف الأدب العظيم عن الصحيفة اليومية.

كانت ديانة ناضجة، فالناس قد نضجت وأصبح تفكيرهم أعمق، واحتاجوا إلى ديانة أعمق، ليست كآلهة اليونان القديمة التي تبعث على الضحك، الكلمة غير مناسبة، لكن يمكننا القول أنها كانت ديانة أنبل من أي ديانة قبلها. وهذا سبب قوتها، فالبشر ليسوا حيوانات، على الأقل ليس بشكل كامل، وهم يحاولون دائماً أن يتخلصوا من الجانب الحيواني من أنفسهم، ومن تلك الطبيعة التى تعاملهم كأنهم حيوانات.

كانت المسيحية أول ديانة تقول للناس " أنتم لستم حيوانات. أنتم أرواح خالدة".

وكان ذلك مايريد كل إنسان أن يصدقه في تلك المرحلة من تاريخ البشرية، وبغض النظر عن رد فعل الديانات القديمة، والمادية السخيفة للحضارة الرومانية، والتعصب الأعمى للديانة اليهودية، فإن الناس رحبوا بالمسيحية. وسار المسيحيون إلى الميدان، يغنون سعداء، برغم استخدامهم كمشاعل حية أو إطعامهم للأسود. وإذا كانت آمالهم قد فشلت فمازال لديهم الأمل أن يبعثوا على يمين المسيح يتمتعون برؤية معذبيهم في الجحيم.

إذا فهمنا ذلك، فسنتوقف عن ارتكاب الخطأ بمهاجمة المسيحية كدين ضحل حل محل اللا أخلاقية المرحة لليونان والرومان.

كان على المسيحية أن تظهر، فقد كانت البشرية تنتظرها، بل كانت متعطشة إليها، ولو لم يأت المسيح في تلك اللحظة، كان لابد أن يأتي نبي أومخلّص آخر.

لكن يجب أن نلاحظ أن المسيح والمسيحية كما نعرفهما اليوم مخترعان تماماً. كان المسيح - بوصف معاصريه - محدودب الظهر قليلاً، طوله حوالي متر ونصف، أنفه طويل وأصلع في مقدمة رأسه، وله لحية سوداء قليلة الشعر. لكننا نراه اليوم طويل القامة أزرق العينين بلحية شقراء وخصل من الشعر غزيرة. أخبر أتباعه أن مملكة الله تقع داخل نفوسهم، وأن عليهم أن يحبوا جيرانهم. لكن تابعه العصابي واسع الخيال القديس بولس غيّر كل ذلك. وقال أن المسيح هو ابن الله وأنه مات على الصليب ككبش فداء لخطيئة البشر، ليَضمن أن حتى الخاطئ سيدخل الجنة إذا أعلن نفسه مسيحياً.

ليس من الضروري بالطبع القول أن المسيح لم يقل شيئاً من ذلك، وأن تفسير القديس بولس للمسيحية هو عكس ماعناه المسيح بالضبط.

لقد كان القديس بولس هو الذي أعطى المسيحية مفهومها ضد الجنس، موضحاً ولو أن "التزوج أصلح من التحرق" لكن المسيحي الجيد يجب أن يكون قادراً على الحياة بدون الجنس. (يجب أن نلاحظ أن القديس بولس كان يؤمن بأن نهاية العالم ستحدث في حياته، ولذا فإن مسألة استمرار الجنس البشري لم تثر في ذهنه).

جاء رد الفعل ضد الجنس هذا، كرد فعل كبير ضد الديانات الوثنية القديمة برموزها اللانهائية عن الجنس، ولكن من الطريف أن نلاحظ أن المسيحيين الأوائل اختاروا أحد هذه الرموز الجنسية كعلامة لهم - السمكة - وهكذا فإن عنصر الجنس الذي قُذف به من الباب الأمامي، عاد زحفاً ثانية من الباب الخلفي.

حيث أصبح المسيحيون أخيراً سادة روما في سنة ٣١٢ ميلادية، وأصبح قسطنطين أول أمبراطور مسيحي، بدأت الأفكار الوثنية تزحف ثانية لتثأر من الدين الجديد. كثير من الأعياد الوثنية أصبحت أعياداً مسيحية، وهذا يعني أن هناك جزءاً وثنياً في المسيحية.

والنساء اللواتي دخلن الأديرة، أصبحن عرائس المسيح، ومما لاشك فيه أن نشوتهن الصوفية كانت تحتوي على عنصر قوي من الجنس.

كان آنذاك عدد النساء أكبر من عدد الرجال في العالم، ولكن المسيحية حددت امرأة واحدة للرجل الواحد، وهذا يعني أن نسبة كبيرة من النساء إما أن يقضين حياتهن في إحباط جنسي أو يتحولن إلى عاهرات. تحت مثل هذه الظروف ليس من المدهش أن يندمج الدين والجنس ثانية كما حدث أيام ديانة ديونيسيوس أو أوزوريس. ولكنه جنس مُمَوَّه تحت أقنعة الدين، وحين يطل برأسه في مناسبة ما، فسرعان مايُربط بالشيطان، وهكذا كانت كل القضايا الغريبة عن الراهبات الممسوسات، أو الساحرات اللواتي اعترفن بممارسة الجنس مع الشيطان.

وهكذا، أصبحت المسيحية بعد ستةعشر قرناً كالطاغية العجوز، أضاءت نيران "سيفل"، وأحرقت الساحرات، وعذبت اليهود، وأجبرت العلماء أن يستنكروا ماإكتشفوه، ويعلنون أن الشمس تدور حول الأرض. لكن كل ذلك قد انتهى، وقامت المسيحية بدورها ودفعت الجنس البشري خطوة للأمام، وذلك هو المهم. أما الآن فهي ديانة ميتة كالديانات القديمة التى ماتت، من يونانية ورومانية وغيرها.

وبرغم إيماني بأن المسيحية ديانة عفى عليها الزمن وليس لها فرصة ان تقوم ثانية أكثر من فرصة الديانات الوثنية، لكن ليس هناك مجال للسخرية منها. لقد أدت هدفاً كبيراً جداً بالأخذ بيد الإنسان عبر فترة من أصعب وأخطر الفترات في رحلة الإنسان من الهمجية إلى التقدم. الإنسان بعدها لم يعد هو الإنسان القديم، لقد أصبح له عقل يفكر به، ويعرف أن بإستخدامه يستطيع أن يغير نفسه والعالم. صحيح أنه مازال بعيداً من أن يكون انساناً كاملاً، لكنه لم يعد سلبياً، يؤمن بالخرافات كالإنسان البدائي.

لكن، لو نظرنا إلى حالة الإنسان الآن، فسنجده متعباً من نفسه ومن العالم، بالضبط كما كان المسيحيون الأوائل متعبين من مادية روما ودينها الميت.

الإنسان المعاصر متعب من حضارتنا الغربية برأسماليتها السخيفة وشيوعيتها العبثية على السواء. إن مادية حضارتنا جعلتنا لا ننظر داخل نفوسنا بالدرجة الكافية، ومعظم الأدب الحديث يتحدث عن الضعفاء، وبدت رسالة الأدب كأنها تقول أن الإنسان ضعيف.

هناك الكثيرون الذين يتمردون على هذا، دون أن يعرفوا السبب، لقد أسميت هؤلاء باللامنتمين، وسأتحدث عنهم بتفصيل أكثر في فصل قادم. وحين تمتلئ حضارة بهؤلاء اللامنتمين فهي بحاجة إلى شئ جديد، كما كان الوثنيون قبل ألفين من السنين.

إن هذه المناقشات حول الدين هي ضرورية تماماً لفهم الموضوع، فما يحدث لحضارتنا اليوم يشبه كثيراً جداً ماحدث للحضارة الرومانية، أعني بذلك أنها تتفسخ، وإذا أردت أن تعرف بشكل واضح

ماحدث للحضارة الرومانية فاقرأ تاكيتوس وسويتونيوس Tacitus and Suetonius، أو رواية روبرت جريفز "أنا كلاوديوس I, Claudiu"، ثم اقرأ مؤلف جيبون "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها". (وهو مترجم إلى العربية في ثلاث مجلدات عن الهيئة المصرية العامة للكتاب هـ.م).

لقد أصبحت روما حضارة لا تفكر إلا في أشياء قليلة غير الجنس والحرب - مثلنا تماماً. مورست أشكال الإنحراف الجنسي على نطاق واسع وأُعتبرت أموراً عادية. لقد تزوج الإمبراطور "نيرون" بالفعل غلاماً ألبسوه كفتاة في إحتفال كبير وأبهة فخمة، لقد ارتكب الزنا بالمحرمات مع والدته بحثاً عن إثارة جنسية جديدة. وإن تاريخ الأباطرة "تيبريوس" و"كاليجولا" و"نيرون" مملوء بتفاصيل قذرة من هذا النوع، وأن معظم الترجمات الشعبية عن هؤلاء تترك أجزاء كبيرة من هذه الأحداث باللغة اللاتينية.

حين يدرس المؤرخون في المستقبل عالم القرن العشرين، سيلاحظون مثل هذا الإنهيار الأخلاقي العجيب، وسيرون في كتب مثل "لوليتا" و"عشيق الليدي تشارلي" و"فاني هيل" وروايات جيمس بوند وغيرها، وثائق مهمة لهذا الإنهيار.

لن يدينوا ذلك، ولا أنا أسعى للإدانة أيضاً، لكنهم سيرون في ذلك دلالات لعملية مشابهة حدثت في روما القديمة زمن المسيح. وهذا مايجعلنا نلقي الضوء على مايحدث لأخلاقنا الجنسية في القرن العشرين.

لم يعد الجنس وسيلة لزيادة النسل فقط، وهذا مفيد بالنسبة للإنفجار السكاني الذي نعاني منه على الأقل، ولدى النساء اليوم حرية أكثر من نساء اليونان أو روما القديمة، وهن متعلمات بشكل أفضل، ودخلن معظم حقول العمل التي كانت تُعتبر ذكورية، من السياسة والعلم والفن والعمل الإجتماعي إلى الجيش والشرطة.

وهكذا فإن الثورة الجنسية لم تعد مقصورة على الرجال كما كانت عند اليونان والرومان، وهذا يعني بدرجة ما أن اللواط قد ظهر منافس له.

لم يكن اليونانيون القدماء يدورون لإغواء العذارى غير المتزوجات، ولكن الإغواء اقتصر على العاهرات والغلمان والشباب الجذاب. الآن قليل من الفتيات من تكون عذراء حين تتزوج (الحديث عن الغرب بالطبع)، وهذا اختلاف كبير بين عصرنا وعصر سقراط أو المسيح. الثورة الجنسية الحاضرة أثرت في كل فرد سواء كان هذا التأثير حسناً أو سيئاً.

باختصار، لاشك أن حضارتنا الغربية قد وصلت إلى المرحلة نفسها التى كانت عليها روما منذ ألفي سنة، ولكن ليس بالصورة نفسها. وأنا أكتب هذا الكتاب تسلمت بالبريد معدلات أرقام الجرائم في "لوس أنجلوس"، كل نوع من الجرائم قد إزداد معدله عن العام الأسبق له، والأرقام تعكس مايحدث في جميع أنحاء العالم. في بريطانيا تضاعفت جرائم العنف بما فيها الإغتصاب عدة مرات، والأرقام في تزايد بمعدل كبير سنة بعد أخرى، كما هي الحال في أمريكا.

وأنا لا أذكر هذا بأية روح تشاؤمية لأبيّنَ نهاية حضارتنا، فأنا لا أعتقد بذلك، لكن يجب أن نواجه بموضوعية نوع الحكم الي سيطلقه مؤرخوا المستقبل عنا. سيقولون "ان حضارتهم أصبحت معقدة لدرجة أنهم لم يعرفوا رؤوسهم من أرجلهم، وكانوا أذكياء ومتعلمين، لكن ذلك لم يوفر لهم هدفاً يسعون إليه، والشيء الأساسي الذي لاحظناه، أنهم بلا هدف، منهكون وضجرون بشكل غريب، أقاموا سنة١٩١٤ أحد أكبر الحروب في التاريخ، راح ضحيتها تسعة ملايين من البشر، وكنا نعتقد أن هذه التجربة ستوقظهم، لكنها جعلتهم يندفعون في عربدة النسيان، وقام إنسان نصف مجنون، يعاني من عدة أمراض جنسية، ليغزو أوروبا، وكانت الضحايا في هذه المرة خمسين مليوناً من البشر، وحين هُزم هذا المجنون، جُن العالم من الفرحة، ولربما تظن أن حضارتهم ستصبح الآن عظيمة، وانهم سيتحولون إلى رجال جادين لهم هدف واضح، لكن ذلك لم يحدث، ومضى السياسيون يتشاجرون على أشياء تافهة كالأطفال، وأصبح العصر الجديد، عصر الجاز والتليفزيون ولوليتا وجيمس بوند والهيروين والماريجوانا والعنف والجنون وجرائم الجنس التى وصلت معدلات لم تصلها من قبل.

أوافق أن كل ذلك يبدو وكأن لا أمل هناك، وكأن المريض يعاني من أمراض عدة لن يُكتب له النجاة منها.

أول من قال بهذا الرأي، الكاتب الألماني "أزوالد شبنجلر"، بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، في مؤلفه الضخم "تدهور الحضارة الغربية" - ترجم إلى العربية في ثلاث مجلدات وصدر في بيروت.هـ.م. - وناقش فيه الحضارة الغربية كرجل بلغ من الكبر عتياً وآن له أن يموت. فكل الإشارات تدل على أنها على سرير الموت.

وهناك مؤرخ آخر جاء بعده وكان أقل تشاؤماً منه، وتحدث عن الموضوع ذاته بإقناع أكثر وفي عمل أكبر هو "دراسة التاريخ" لمؤلفه أرنولد توينبي (وقد ترجم إلى العربية مختصراً في أربع مجلدات عن دار المعارف بالقاهرة.هـ.م.).

لكنني لا أعتقد أن الأمور بهذه الدرجة من السوء. فالحضارات تأخذ وقتاً طويلاً لتموت - اسغرقت روما قرنين في حالة نزاع - إذن فهناك الكثير من الوقت لحل المشكلة، وهناك دلائل بالفعل تبين أننا في طريق الحل. لا نأمل طبعاً في أن يعتنق الغرب ديناً جديداً، فقد تخطى هذه المرحلة، لكن العلم الآن توقف عن أن يكون جامداً ومادياً، وبدأ يدرك أن الجنس البشري على حافة تغيّر هائل، فالبحوث الجديدة الآن في أعماق النفس، وحاسة الإدراك الفائق، والتخاطب الفكري عن بعد وماشابه، ستؤكد أن الإنسان يملك قوى أكبر ممايدرك. قد يأخذ ذلك وقتاً طويلاً، لكن هناك الكثير من الوقت. لقد عجّل بسقوط روما أسراب البرابرة التى غزتها، وليس لدينا على الأرجح غزو من

البرابرة، في عصر القنبلة الهيدروجينية التي خلقت توازناً متوتراً من القوة، وغزو الفضاء الذي يواجهنا كأحد التحديات الكبرى. كل ماأستطيع قوله أننا نسير في الطريق الصحيح.

وأكرر، أننا يجب أن نفهم كل هذا، قبل أن نفهم حقيقة مايحدث للسلوك الجنسي في قرننا.

من المؤكد أن هناك تزايداً في العلاقات الجنسية بين النساء والرجال وبين الرجال والرجال والنساء والنساء. لكن ذلك لا يثبت أن حضارتنا تموت. فالجنس وحده لا يميت الحضارات.

ولتوضيح هذه النقطة، لابد أن نأخذ في الإعتبار، مايحدث للسلوك الجنسي في بلدان العالم الأخرى خارج الحضارة الغربية. في روسيا والصين، ينظرون إلى العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج بعدم ارتياح. في الصين، امرأة واحدة للرجل، والإتصال الجنسي قبل الزواج عليه عقوبة شديدة، كل هذا مفهوم، حيث تقع البلدان في قبضة تجربة اشتراكية كبيرة تقدم معنى ما لهدف ما. لكن كم من الوقت ستظل الشيوعية حارسة لهذا الهدف حين تصل الدولتان إلى مستوى المعيشة والرفاهية الغربية! سؤال مفتوح من ناحية أخرى، فإن الجنس يعامل في اليابان بحرية يصعب على المجتمع البريطاني تصديقها. يبدو أنه لا خجل إطلاقاً من الجنس في اليابان. فالعادة السرية تُعتبر ببساطة متعة فردية، كالقراءة. والذكر في اليابان هو الأسمى والأعلى، والطفل الذكر حتى وهو في المهد يُنظر إليه بأنه مخلوق أسمى بكثير من أمه وأخوته. وقد تمسك أمه بعضوه إذا كان كبيراً وتتباهى بإستعراضه أمام الأصدقاء، ولو لعب الولد بعضوه أو حتى تفحص الأعضاء الجنسية لأخواته وزميلاته، فإن هذا يُعتبر أمراً عادياً ويلقى التشجيع.

وحقيقة أن الرجل هو الأسمى، تعني أن الممارسة الجنسية خارج العلاقات الزوجية تُعتبر قضية مسلمة. إن أية زوجة لا تجرؤ أن تعترض على احتفاظ زوجها بعشيقته خاصة إذا كان غنياً أو ذا نفوذ.

(الشخصية اليابانية بعيدة عن الديمقراطية بقدر ماتتخيل، كل فرد في المجتمع له مكانته ويحافظ عليها بدقة شديدة، ويمكنك أن تحكم على مركز الرجل من درجة الإنحناءة التي يلقاها من الآخرين).

وحيث أن الإبن هو الأمل ومحط الإعجاب، فهو غالباً ماينلدفع لممارسة الجنس في سن مبكرة. وقد يأخذه والده إلى أحد بيوت الدعارة كهدية في عيد ميلاده.

هذه الصراحة حول الجنس، تعني أن وسواسنا حول الأدب الجنسي غائب كلية تقريباً عند اليابانيين، ورواية "كفاني هيل" ستبدو لهم مسلية ومفيدة ولكن ليست أدباً جنسياً مكشوفاً. ولقد كانت تباع في المحلات هناك ولفترة قريبة كتب تسمى كتب الزفاف، فيها من الصور الفاضحة والأوضاع الكثير، وهدفها هو إثارة الشباب من الجنسين، ومن المفروغ منه أن يتفرج الفتى والفتاة على مثل هذه الكتب، ثم يجربون الأوضاع الموجودة فيها، وكانت تعتبر غير مضرة، بل كألبوم الصور العائلية، كما تبيع المحلات التجارية أدوات تساعد في زيادة المتعة عند ممارسة العادة السرية عند الجنسين.

وبحيث أن اليابان قد دُفعت دفعاً لكي تتأمرك (تصبح كأمريكا) فإن كثيراً من هذه التجارة أضحت سرية، ومن الطريف أن نلاحظ المدى الذي ستسمح فيه اليابان لنفسها أن تندفع تجاه الإحتشام الغربي في الجنس!.

ولابد أن نذكر، أن هذا التقديس للذكر له جانبه المزعج، فهو يشعر أنه يحمل كل آمال العائلة، وقد يصبح بسبب ذلك عصابياً جداً، ومن الشائع هناك، أن ينتحر طلاب المدارس إذا فشلوا في امتحاناتهم، وهنا يبدو للمرة الثانية، موقف اليابانيين، غير مفهوم للرجل الغربي، فالعائلة التي ينتحر ابنها بالقاء نفسه تحت عجلات قطار لأنه رسب في الإمتحان، تشعر بالفخر وكأنه نجح في الإمتحان، فلقد برهن على إحساسه الحاد بالشرف وتحرره من الجبن وعمله فخر تعتز به العائلة كأنه قُتل في معركة. فالإنتحار لا يعتبر عملاً سخيفاً أو حتى جريمة..

اليابانيون شعب غريب، فلا توجد كوابح أو ممنوعات فيما يخص الجنس والخمر، ولكن في كل العلاقات الشخصية الأخرى، هناك كوابح وموانع قد تدفع معظم الغربيين إلى الإنتحار. فالناس تتصرف وكأن كل منهم يخاف الأخر، فصاحب العمل مثلاً لا يجرؤ أن يوبخ موظفاً عنده لسوء عمله، فسيُعتبر ذلك إهانة عميقة وخطيرة، والموظف الذي يتعمد إهانة موظف آخر، فهو يخاطر بتلقي رد عنيف قد يصل إلى القتل. معظم أمراض اليابانيين النفسية سببها نوع من الخوف من الآخرين، والذي يعاني من ذلك لا يستطيع أن ينظر إلى الناس في وجوههم، وإذا وجهت الحديث إليه يحمّر وجهه.

وهكذا، فبينما تأثير الغرب على اليابان قد يكون سيئاً فيما يخص الجنس، لكنه حسن في معظم الأشياء الأخرى. وعلى كل حال فإن الأجيال الجديدة تطور وسائل حرة وسهلة، تصدم الآباء غالباً لكنها بلاشك دلالة صحة.

إن ذكر الإنتحار، يقودنا بشكل طبيعي إلى السويد، التي تعادل نسبة الإنتحار فيها اليابان تماماً. فهناك شخص من بين كل خمسة آلاف شخص ينتحر سنوياً. والإنتحار مرض ينتج عن الملل والضجر، والبلاد التي تقل بها نسبة الإنتحار هي أيضاً أفقر البلاد في العالم. - كأيرلندا الجنوبية مثلاً، فنسبة الإنتحار هناك واحد إلى خمسين ألفاً - فحيث يوجد الفقر تنخفض نسبة الإنتحار، وحيث يوجد الرخاء - ألمانيا، النمسا، الدنمارك، السويد وسويسرا - فنسبة الإنتحار مرتفعة، وسويسرا تُعتبر أعلى نسبة في العالم (٢٣ نسمة من كل مائة ألف)، ومعدل الإنتحار في بريطانيا يعادل مافي أمريكا (واحد لكل عشرة آلاف نسمة) وهو نصف معدل ماهو في السويد.

موقف السويديين من الجنس تحكمه المصادفة الساحرة. آخر مرة كنت فيها هناك، كانت إحدى الجمل الدارجة "هيا نذهب إلى السرير ونرى إذا أعجب كل منا الآخر". وجملة أخرى "كان ذلك رائعاً.. ماأسمك؟".

هناك الإجهاض قانوني، ولا توجد رقابة على الأدب الجنسي، والسويد من أكثر الدول اكتفاءً في العالم وبدون بطالة تقريباً، سجونها متحضرة جداً ومفتوحة، ومستوى معيشة الفرد العادي منهم كمستوى العائلة المتوسطة في بريطانيا.

والنتيجة الغريبة أن ممارسة الجنس منذ الصغر، والإنتحار، في طريقهما لأن يصبحا هواية قومية هناك، طبعاً هذه مبالغة لكنها تعبر عن شيء من الصدمة للملاحظ الذي يدرس المجتمع السويدي.

لكن الوقت قد جاء لنواجه هذه المشكلة، فإنجلترا وأمريكا أصبحتا تشبهان السويد سنة بعد أخرى. لكن ماهو واضح أن هناك موقفاً متكلفاً تجاه الجنس في أمريكا وبريطانيا قد يكون سببه موقع المرأة في هذين البلدين، فالحديث عن الجنس يأخذ مساحة كبيرة، والتفكير فيه مساحة أكبر، لكن الممارسة الفعلية أقل بكثير من الحديث، وهذا مرجعه إلى موقف الأمريكيين من المرأة والميل إلى اعتبارها مساوية للرجل وهي تعلم أنها أقل منه، وأنه يهدف إلى أن ينالها جنسياً ويضيف ذلك إلى انتصاراته، فهي تحاول تعويضاً لذلك، أن تضع عذريتها في مكانٍ عالٍ، لكن كل ذلك لن يفيد.

اعتادت الهند واليابان ودول شرقية أخرى أن تعامل النساء كأملاك خاصة أو عبيداً، لذا لم يكن هناك من يعترض على أعمال كالكوماسوترا أو التاوية أو حتى الروض العاطر، وهي أعمال كلاسيكية في فن ممارسة الجنس، ولم تطبع هذه الكتب على نطاق واسع في بريطانيا وأمريكا إلا حديثاً، وبإعتبارها من الكلاسيكيات، ولا يجرؤ طبيب هنا أن يكتب كتاباً مفصلاً في ممارسة الجنس كما هو مفصل في الكوماسوترا الهندية مثلاً.

لكن الأمر تغيّر، الهند واليابان أصبحتا أكثر تكلفاً تشبهاً بالغرب، بينما بلاد الغرب بدأت تأخذ جانب الصراحة،وهكذا فإن الشرق والغرب يعطي كلا منهما الآخر، بعض المواقف تجاه الجنس. ستصبح المرأة في الشرق أكثر أهمية، حيث تتحسن فرص التعليم، وبدأنا ندرك في الغرب أن الإحتشام ليس علامة على حضارة متطورة، وأن الحرية الجنسية بدرجة ما، ليست دلالة على الإنحلال.

خذ مثلاً رواية غربية نموذجية مثل رواية هوثورن "الحرف القرمزي" وتدور أحداثها في ولاية أمريكية في القرن السابع عشر. الحبكة تدور حول "هستربرين" وعملية زنا قام بها كانت نتيجتها ابنة ذكية. وشاع أن والد الطفلة المجهول هو قسيس القرية، والرواية تتحدث أساساً عن الضمير المعذب للقسيس الذي قاده أخيراً للإعتراف بخطيئته على الملأ.

مازال القارئ الأمريكي والإنجليزي يستمتع بشغف بهذه الروايةبرغم أنها تبدو قديمة الطراز. القارئ الهندي أو الياباني سيجدها غير مفهومة تقريباً إلا من ناحية الفضول التاريخي.

هل سنكون أفضل لو كان سلوكنا الجنسي مثل ذلك الذي في "الحرف القرمزي"؟ قليل من المتعصبين والمحافظين سيجيبون بالإيجاب. لكن معظم الناس سيرون أن هذ النوع من السلوك لا يجدي في عصر الفضاء والقنبلة الهيدروجينية. ومن الأفضل أن تتفهم موقف الهنود واليابانيين في هذه القضية.

إن أخلاقية "الحرف القرمزي" جزء من عقلية محدودة شديدة الضيق، ورفض هذه الأخلاقية لا يعني أننا اخترنا الشر واللاأخلاق.

إن العالم أصبح أصغر مما كانت عليه مدينة كبيرة قبل ثلاثمائة سنة، فإذا كنا نهتم بعالمنا فذلك سيكون لصالحنا.

إن المشاكل الجنسية التى أتناولها في هذا الكتاب، هي موضوع جانبي من مشكلة أكثر أهمية تؤثر في الجنس البشري كله في هذه المرحلة من تاريخه.

إن البشرية تتقدم بسلسلة من القفزات الخرقاء، والأدهى أنها لا تدرك بالضبط مدى التقدم الذي أحرزته.

المسيحيون القدماء لم يعرفوا بالضبط لماذا يتصرفون بعنف ضد دين روما القديم. وفهموا السبب بعد ذلك. ومثال نموذجي لما أعنيه هو "إسحق نيوتن" مؤسس العلم الحديث، لقد قضى معظم وقت فراغه في كتابة تعليق ضخم حول "كتاب دانيال"، واعتقد أن ذلك أكثر أعماله أهمية، وهو الذي فعل الكثير لتحطيم تعنت الدين القديم.

بإختصار: كان الإنسان البدائي الذي يشبه القرد ليس لديه وقت ليفكر في أي شئ سوى الطعام والمأوى. ثم جاء الرجل المتحضر ومعه وقت الفراغ، فاستخدم قوته الإضافية في شن الحروب على جيرانه، ثم جاء الإنسان الذي تتعطش روحه إلى عمل أكثر من الحرب وحرث الأرض، ووضع أمامه هدفاً أن يترك وراءه طبيعته الحيوانية، ثم جاء رجل العلم وحطم عناصر الخرافة والتعنت. هذا التغيير كان هائلاً حتى أن الإنسان مازال يتعافى من الصدمة.

لكن علامة الإستفهام الكبرى التى تواجهنا: ماذا الآن؟.

الفصل الثاني

مشـــكلة الإنحراف الجنـــسى

لابد أن نواجه الآن، مشكلة تـبزغ بشكل طبيعي من الفصل السابق، وهي مشكلة الميل إلى نفس الجنس عند الرجال خاصة، والإنحرفات الجنسية الأخرى بصفة عامة.

وهو موضوع لا يبعث على السرور، ولكن مالم تكن تعيش في دير منعزلاً عن العالم، فإنك ستواجه هذه الإنحرافات بشكل كبير في العالم الحديث، وبالتالي فمن المهم أن تفهمها.

نحن نميل أن يكون لدينا فكرة محددة جداً عما هو طبيعي **Normal** وماهو غير طبيعي أو غير عادي **Abnormal** في الجنس.

فنحن نرى أن من الأمور العادية أن يقع رجل وامرأة كل منهما في حب الآخر، وأن يتزوجا ويكوّنا عائلة. وإذا أعجب الزوج بسكرتيرته الحسناء في العمل، وأغواها وأقام معها علاقةجنسية، فإن هذا الأمر مازال أيضاً ضمن الأمور العادية، برغم أنه عمل غير محبب. ولكن إذا أثار الغلام الذي يخدم في المكتب اهتمام الرجل جنسياً، فهذا بالتحديد يُعتبر من الأمور غير العادية.

هذه هي نظرتنا للطبيعي وغير الطبيعي في الجنس.

ولقد حاولت أن أُبيِّن أن أسلافنا البدائيين لم تكن لديهم رابطة الزواج التي نعرفها اليوم، وفي الواقع لم يكونوا يعرفون شيئاً عن نظام الأزواج والزوجات، وكانت نساء القبيلة تنجب الأطفال دون أن تكون لديهن فكرة عن كيفية حدوث ذلك، وكان رجال القبيلة ينظرون إلى الجنس كتسلية ممتعة بعد الصيد، ويختارون لمتعتهم المتوفر أمامهم من النساء.

وهذا يشير إلى أن ما نسميه بالعلاقة العائلية العادية الطبيعية، قد لا تكون في ذلك الوقت أمراً عادياً أو طبيعياً عند الجنس البشري.

ورأينا أيضاً أن الرومان واليونان كانوا يصرون على الإخلاص في العلاقات الزوجية لأسباب اجتماعية وليس لأنهم بالطبيعة رجال يقدسون الروابط العائلية.

إذن، فلنتكلم بحرص حين نتحدث عما هو عادي أو طبيعي بالنسبة للغريزة الجنسية. فقد نخلط بين العادات- أي مااعتاده المرء - وبين طبيعة الغريزة الجنسية.

حين ننظر للأمور دون تحيز، فإن الشيء الوحيد الذي نراه طبيعياً هو وجود الدافع الجنسي لدى البشر. وهو في أساسه دافع أناني. وأعني بذلك أنه يشبه دافع الحاجة إلى الأكل، أو إلى الدفء في يوم بارد، أو إلى النوم حين يكون المرء متعباً. وهو دافع يشترك في الكثير مع هذه الدوافع، بأكثر من اشتراكه مثلاً مع دافع الأم لحماية طفلها. ولابد أن نعترف بأن الدافع الجنسي عند البشر يمتزج بالخيال بدرجة يصعب فيها الفصل بينهما. ولكن يمكن رؤية هذا الدافع بشكل نقي واضح عند الحيوانات. أحياناً قد يتشبث كلب بمخالبه بساق شخص ما، ثم يبدأ في التحرك حوله في حالة واضحة من التهيج الجنسي، ويمكننا رؤية القرود في حدائق الحيوان تمارس العادة السرية، وتحاول ممارسة اللواط مع قرود أخرى. القرود والكلاب تملك القليل جداً من الخيال، ولقد كشفت البحوث أن القرد لا يستطيع أن يحتفظ في ذاكرته بصورة ذهنية فترة طويلة ليفكر فيها.

إذن من العدل أن نعترف أن الدافع الأساسي في الجنس هو دافع اللذة والمتعة بالضبط كرفع يدك لتتدفأ بالنار. فالأعضاء الجنسية تُراكم نوع من الكهرباء الساكنة - طاقة جنسية - ثم ترغب في تفريغ هذه الشحنة، فتكون مثل المسدس المحشو، ينتظر شخصاً ما ليشد الزناد. هنا يتدخل الخيال البشري في اختيار من أو ما يشد الزناد، عن الحيوانات لا توجد مشكلة، فأنثى الحيوان تفرز رائحة

معينة من غدد في أعضائها الجنسية، لا يستطيع الذكر من الحيوانات مقاومتها، فيندفع لممارسة الجنس. ولكن البشر فقدوا استخدام هذه الوسيلة منذ وقت طويل.

وعند مواجهة هذه المسألة بأمانة، فإننا ندرك أن الدافع الجنسي عند البشر قد قام على دوافع لا علاقة لها أو ذات علاقة ضئيلة جداً بالحب، وأن الذي يلعب الدور الأكبر في هذا الدافع هو "الممنوع".

في مسرحية شكسبير "إغتصاب لوكريس"، يصف لوكريس كمدينة مسورّة، ورغبة "تاركوان" دخول هذه المدينة الجميلة، هذه الجملة تلمس شيئاً أساسياً في الدافع الجنسي الذكري.

وفي رواية "دكتور فاوست" لتوماس مان، هناك حوار بين شخصيتين حول موضوع الزواج، وتسخر احداهما من مراسم الزواج بالقول "هذان الشخصان سيصبحان جسداً واحداً" مشيراً إلى أنهما إذا أصبحا جسداً واحداً فسيفقد كل منهما الإهتمام بالآخر.

فالجنس يعتمد على عدم الألفة، على فكرة الممنوع.

لو أدركنا ذلك، لفهمنا معنى كل الإنحرافات الجنسية. فكل شيء يعتمد على مايحدث أن تراه ممنوعاً أو غير مألوف. عمل "توماس مان" السابق يكشف عن افتتانه بفكرة العلاقة المحرمة بين أخ وأخت، قد يكون ذلك بسبب أنه لم يكن له أخت. فمعظم الأخوة والأخوات يجدون بعضهم البعض غير جذابين جنسياً، والسبب بالتحديد أن عدم الألفة غير موجود هنا. فهم يألفون بعضهم بشكل كبير، وينطبق هذا بشكل واضح على الجنسية المثلية، فالرجال العاديون لا يثيرهم الرجال الآخرون لأنهم يشبهونهم بدرجة كبيرة، لكن لنفرض أن شخصاً ما كان في مدرسة داخلية حين تفتحت غريزته الجنسية، فإن عنصر "الممنوع" في المداعبة الجنسية مع أولاد آخرين، قد يثيره بالدرجة نفسها التى تثير فيها فتاة إنساناً عادياً، وحين ينوّم الخيال بفكره الممنوع فإنه يكتسب ذوقاً جديداً دائماً.

هذا هو النوع المكتسب من الجنسية المثلية، وهناك بالتأكيد نوع آخر وهو في أصله ناتج عن سبب عضوي جيني.

لقد اعترف "روبرت كويل" وهو رجل تحول إلى أنثى، بأنه برغم عدم انجذابه للرجال حين كان رجلاً، إلا أن ذكورته العدوانية وكراهيته للشواذ كانت محاولة للتعويض عن ميوله الحقيقة.

وحين يكون الأمر متعلقاً بالتكوين الجيني والهرموني للمرء، فإن الأمر يصبح سهلاً على الفهم. وسيصل العلماء بالتأكيد للأسباب التي تدفع الأنسان بأن يولد محباً للجنس نفسه. لكن ذلك لايهم بصفة خاصة، فالمصابون بالجنسية المثلية (المقصود بها العلاقة البدنية بين ذكرين، وصورها عديدة وليست مقصورة على المواقعة الجنسية كما يتصور الكثيرون، فالعناق والتقبيل والإستعراء وتبادل الإستمناء باليد أو الفم كلها صور مختلفة للجنسية المثلية) هم على العموم لا يسببون أي أذى للآخرين، وهم يميلون لأن يكونوا أذكياء وفنانين، ونسبة كبيرة من ثقافتنا، وصناعة الترفيه والتسلية

لدينا يعود الفضل فيها إليهم. فإذا ذهبت إلى السينما أو المسرح أو شاهدت التليفزيون فهناك احتمال كبير بأنك تشاهد شواذاً، وأن الفيلم أو المسرحية أو العرض المقدم قد كتبه أو أخرجه واحد منهم.

وكثير من الفتيات قد أصبن بالذعر حين اكتشفن أن معبودهن شاذ جنسياً، يميل الشواذ أن يكونوا اجتماعيين، محبين للحياة، ويحبون الآخرين، ويقيمون أهمية كبيرة لعلاقاتهم الشخصية. كل هذا يعني أنهم يضيفون نسبة كبيرة من التنوع لحياتنا الإجتماعية.

هناك للأسف جانب سلبي لهذه الظاهرة، فمن الصعب التخيل أن يكون هناك بيتهوفن شاذا أو إسحق نيوتن شاذاً، فالشواذ كقاعدة عامة لا يخرج من بينهم فلاسفة أو علماء، لأن قليلاً منهم يمتلك ذلك التكريس التام غير الشخصي للمعرفة، لكن ذلك بالطبع ليس أمراً حاسماً. يمكن أن نذكر الكثير جداً من الفنانين والشعراء والأدباء والموسيقيين الشواذ، لكن نادراً ماتجد عالماً أو فيلسوفاً منهم. على كل حال فهم يلعبون دوراً مهما جداً في حياتنا الثقافية حيث يخلقون جواً يساعد على العمل الإبداعي. وهناك الكثير من المبدعين - في الفن والأدب والعلم - يدينون بدرجة كبيرة لعطف وتشجيع الشواذ في فترة ما في حياتهم.

ومن حسن الحظ أن المدرسة القديمة التي ترى أنه لابد من جلد كل الشواذ، تموت بسرعة الآن، وقد نعيش إلى اليوم الذي نرى فيه الموسوعات تكتب أمام الشخص شاذ أو غير شاذ.

إذن فليس من الموضوعية أن نضع الشذوذ الجنسي ضمن الإنحرافات الجنسية، فاليوم، لا يعتبر الشذوذ في الغرب عملاً شائناً، ولا يوجد سبب لأن نعتبره كذلك؟!.

كان الإعتراض القديم أن الشذوذ لن يعمر الأرض، ويقلل الإنجاب، وهذا حقيقي، لكن في أيامنا هذه التي نعاني منها من الإنفجار السكاني، فذلك غير مهم. إن اليوم يقترب الذي نعترف به أن العالم ينقسم إلى ثلاثة أنواع: الذكر والأنثى والشاذ.

هناك انحراف جنسي غريب، وهو ميل بعض الرجال لإرتداء ملابس النساء، قد يرى البعض أن هذا الإنحراف له علاقة بالجنسية المثلية، ولكن في الحقيقة لا علاقة له بذلك.

مفتاح هذا الإنحراف، يقع مرة ثانية في خانة ماهو "ممنوع"، حيث تنتاب الشخص رغبة مرضية غامضة أن يكون هو الشيء الممنوع، وأن يمتلكه أيضاً.

إذا حاولنا استخدام الخيال لنفهم رغبة رجل ما، وأحياناً رجل واضح الذكورة، في ارتداء ملابس النساء، فإننا نبدأ في فهم شيء جوهري حول الغريزة الجنسية.

في محاورة أفلاطون "المادية" يروي الكاتب المسرحي "أريستوفان" أسطورة كوميدية عن كيفية وجود الجنسين الذكر والأنثى. يقول إنه في وقت من الأوقات كان هناك نوع واحد من البشر، مخلوقات كروية بأربعة أذرع وأربع سيقان ورأسان. وأصبح البشر أقوياء مما أزعج الآلهة، فقرروا أن

يقللوا هذه العوه بقطع الإنسان إلى نصفين، وهكذا يقضي البشر وقتهم كل يبحث عن نصفه، ولا يعود لديهم الوقت لتحدى الآلهة.

طبعاً هذه أسطورة، لكنها توضح شيئاً مهماً عن الحالة البشرية، فأقوى الدوافع في حياتنا هو الدافع الجنسي، وكل الفن العظيم تقريباً انبثق عنه. وهو الذي يعطينا الإحساس بالهدف والغاية أكثر من أية تجربة نمر بها في حياتنا اليومية. وتكشف لنا بعض قصص "حي دي موباسان" أن هذا مافتنه في موضوع الجنس. قد تكون الحياة رعبة ولا معنى لها، بحيث أننا حين نقرأ عنها نميل إلى القول "حقاً أن الحياة نكتة سخيفة"، ومع ذلك فوراء هذا اللا معنى الواضح هناك هذا الفيض الهائل من الهدف الغريزي الذي يخبرنا بأن الحياة ليست بلا معنى، ولكن لغباء الإنسان الشديد فهو لا يرى هذا المعنى.

لم يكن موباسان فيلسوفاً، ولكنه يسجل بأمانة مالاحظه: العبث الواضح للوجود الإنساني، ثم هذه القوة الجنسية الكبيرة التي يبدو أن لها هدفاً خاصاً بها تسعى إليه ولا ندركه.

وقد حاول "أرستوفان" أن يوضحه بأسطورته.. ولكن كيف نفسره؟ كيف نفسر الرغبة عند البعض في إرتداء ملابس النساء؟

حين يحاول العقل فهم المشكلة، فإنه يجد نفسه يتحسس في الظلام، ومن الواضح أنه يتحسس اللغز الأساسي في الوجود الإنساني. وهذا قد يفسر لنا لماذا ربط القدماء بين الجنس والدين، قد لا يكونان متطابقين، لكنهما يشتركان في الكثير جداً.

الجنس يجعلنا نعي أن الإنسان ليس مخلوقاً منطقياً وعاقلاً، إن هناك قوة تدفعه لا يفهمها.. إنه نوع من العرائس الدمي، لكن من الذي يشد الخيوط؟

سنعود لهذه القضية مطولاً في فصل قادم.

ونبدأ بالحديث عن الإنحرافات التي من المرجّح أن تقابلك وأنت تقرأ جريدة الصباح.

أولا: هناك الإثارة الذاتية الناتجة عن حب النفس. ويجب الا نخلط بينها وبين العادة السرية، الإثارة الذاتية نعني بها الشخص الذي يستثار جنسياً برؤية جسده نفسه.

وهذا يرجع عادة إلى نوع من التربية والنشأة، أصبحت الآن نادرة. وذلك حين يقود الوالدان الطفل إلى الإعتقاد بأن هناك شيئا ما بذئ وشائن في الجسد البشري العاري. وهكذا يثيران به اهتماماً سقيماً بالعري.

ثم هناك الشبق الذاتي وهو يرتبط بالتلصص على الآخرين وهم عراة، وممارسة العادة السرية في الوقت نفسه. ويرجع هذا الإنحراف أولاً إلى الإحباط، ثم إلى التربية السيئة، في إفهام الطفل بأن كل مايتعلق بالجسد والأعضاء التناسلية سيئ وبذيء.

ومن بين الإنحرافات الجنسية المرضية "الفيتيشية" بمعنى أن يستثار الشخص جنسياً من شيء مادي ارتبط بذهنه بالجنس أو بتجربة جنسية مبكرة في الطفولة.

في أواخر القرن الماضي كان من الشائع أن تكون "مشدات الخصر" الخاصة بالسيدات سبباً في الإثارة الجنسية عند البعض، حيث كانت المرأة ترتدي عادة مشداً على وسطها على اللحم مباشرة، في الوقت الحاضر يبدو أن المشد قد اختفى تماماً، وبالتالي اختفى هذا التعلق الجنسي به. وقد كان المشد بالنسبة للمرأة في العصر الفيكتوري سراً تفضل الموت على أن تكشفه، ولذلك أصبح يثير عواطف جامحة في الذكور. في القرن العشرين أصبحت "كلاسين النساء والشورتات" من أكثر أنواع الفيتيشية انتشاراً، حيث يمارس الذكر العادة السرية وهو يمسك بهذا الجزء من الثياب.

ولكن هناك العديد من الأشياء التي قد تستخدم "كفتيش" لممارسة الجنس، من المناديل النسائية إلى الأحذية، بل أن بعض أعضاء جسد الأنثى كاليد أو القدم تسبب إثارة عند البعض.

وبالرغم من صعوبة فهم هذا الإنحراف في أول الأمر، فإن قليلاً من التفكير يجعله واضحاً.

إذا كانت صورة فتاة عارية تستثير الرجل جنسياً، فلم تبق إلا خطوة واحدة، حتى يستثار بمنظر ملابس تحتية أنثوية معلقة على حبل غسيل. ومن هنا يمكننا أن نفهم لماذا يستثار أناس معينون من أي شيء ارتبط بشكل أو بآخر بالرغبة الجنسية عندهم.

والشيء الغريب في هذا الموضوع أن "الفتيش" غالباً مايصبح أكثر أهمية من مارسة الجنس العادي. وقد أشار عالم النفس "ستيكل" إلى حالة رجل كان لا يستطيع ممارسة الجنس مع زوجته إلا إذا كانت ترتدي مريلة لها رائحة الحليب. وقد كشف التحليل النفسي أن هذا ارتبط بممرضة كانت تمرضه في صغره وكانت تلعب له في أعضائه التناسلية وكانت ترتدي مثل تلك المريلة.

حين تحلم في منامك، يمكن أن تحدث أكثر الأشياء جنوناً ولا تلاحظ أنها نوع من الجنون وأنت تحلم، إنها تبدو طبيعية تماماً. وهذا يرجع إلى ضعف الإحساس بالعلة والسبب أثناء النوم يعكس مايحدث أثناء اليقظة.

مارأيك أن البحوث أثبتت أننا لسنا مستيقظين تماماً، ولا نكون مستيقظين تماماً قط، فالأحلام تحيطنا معظم الوقت. أحلام يقظة خيالية، إذن فلا يوجد سبب للدهشة في أن تكون حياتنا الجنسية، في الغالب، مجنونة قليلاً. لو كنا مستيقظين تماماً فلن يحدث ذلك، ولن يكون هناك انحراف جنسي. ولكننا لسنا كذلك، إن الرجال والنساء يجدون واقع الفعل الجنسي مخيباً للآمال إذا قورن بأحلام اليقظة الجنسية. إذن لماذا ندهش إذا امتزج الواقع بأحلام اليقظة وأنتج ذلك بعض الإنحرافات الغريبة؟.

هناك إنحراف جنسي، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفيتيشية، ويبعث الرعب في النفس، لكنه نادر وغير مؤذٍ، وهو ممارسة الجنس مع الموتى.

وقد ذكرت كتب علم النفس الجنسي حالات كثيرة لهذا الإنحراف خاصة بين من يعملون في المشارح وحفر القبور أو ممن تحتم طبيعة عملهم التعامل مع الموتى، وقد شرحت ذلك بالتفصيل في كتابي "أصول الدافع الجنسي" - تُرجم إلى العربية عن دار الآداب في بيروت.هـ.م. - الحالة الكلاسيكية في هذا الإنحراف، هي حالة الشاويش برتراند الفرنسي الجنسية الذي سجن ثلاث سنوات لنبشه القبور. لقد عاني "برتراند" ألماً شديداً ومتاعب جمة ليشبع رغبته الجنسية الغريبة، ومع ذلك كان متديناً وجندياً ممتازاً، وفي حالة من الإنضباط النفسي القوي، حتى خنق هذا الإنضباط عواطفه، وحين وجدت هذه العواطف مخرجاً، انفجرت بقوة البركان، كان محتشماً وخجولاً يخشى السير مع الفتيات. من الصعب أن نتخيل أن تجذب الجثث مهما كانت صغيرة وجميلة شخصيات مثل كازانوفا أو فرانك هاريس، لأن مثل هذه الشخصيات المعربدة والمنطلقة لا تقع تحت أي كبح أو رادع مع النساء، أن نقدهم لأنفسهم أقل بكثير من نقد "برنارد" لنفسه وبالتالي فهم أقل إحباطاً.

لكن هناك ملمحاً آخر غريباً في حالة "برنارد" يأخذنا إلى بعد أعمق في لغز الدافع الجنسي، كان برنارد دائماً يدمر الأجساد بعد هتك عرضها. وهذا يبعث إلى الذهن بجملة استخدمها "زولا" في روايته "الوحش الآدمي" تقول: "أراد أن يمتلك المرأة إلى درجة تدميرها".

وهذا يصدمنا، لأننا نربط دائماً الجنس بالحب والرقة والعناية وبمشاعر حماية نحو المرأة. ولكن فكر في مشاعر شاب صغير في الرابعة عشر أو أكبر قليلاً، وقد أصبح واعياً برغباته الجنسية، لكنه خجول، برغم شدة رغبته لإشباعها. هل هناك أية عناصر للحب أو الحماية في مشاعره هذه؟ بالطبع لا، فهو يرمق الفتيات اللواتي يراهن في الشارع كالذئب يرقب قطيعاً من الأغنام، وإذا قرأ في جريدة موضوعاً عن الإغتصاب، فلن يصدمه ذلك، بل على العكس فهو يميل إلى حسد المغتصب.

هذا المراهق أو الشاب يشبه رجلاً يكاد يموت عطشاً في الصحراء، رغبته في الماء لا تحمل أي حب أو عطف، كل مايريده هو أن يشربه.

يميل الشباب إلى إبداء الخجل من قوة رغباتهم الجنسية، وهم لا يعترفون بها من تلقاء أنفسهم أو يجعلونها واضحة للآخرين، ومايجري في خيالهم يظل سراً طوال حياتهم. وفي اللحظة التي يتحدث فيها إلى فتاة، فإن رغبته الجنسية تتراجع قليلاً حتى لو لم يشعر نحوها بالحنان أو بالرغبة في حمايتها، لكن عليه أن يتظاهر بذلك إذا أراد الفتاة، يحاول أن يتصرف بشكل متحضر، وإذا كان من النوع المرح فقد يتزوج صغيراً، لأنه يجد رغبة الفتاة في الزواج معقولة. وهو يرغب في أن يرضيها، وهكذا فإن توحش الرغبة الجوهري، يغطي بكل أنواع الدوافع الأخرى بالإضافة إلى التقاليد الإجتماعية. ولكن لو أنصفنا فيجب أن نعترف بأن كل هذا التمثيل لا علاقة له برغبة الشاب، لا يوجد رقة وحب في شهية الذكر الجنسية، أكثر مما يوجد في شهيته من حب نحو طعام عشاء جيد.

والعلاقة الجنسية النموذجية لابد أن يكون فيها تناسب معقول من الرقة والرغبة الجنسية، لكن ليس بالضرورة أن تكون هناك علاقة بين الرقة والرغبة.

وحين يحب الرجل الجنس لدرجة أن يتزوج، ثم يذهب وهو في الثلاثينيات ليقيم علاقات مع أخريات، فإن الأنانية الأساسية للدافع الجنسي الذكري تصبح أكثر وضوحاً. التكرار يجعله يشعر أن كل النساء في جوهرهن متشابهات، وهو يلاحقهن بروح صياد يمارس لعبته المفضلة، وقد يجد السعادة في الإحتفاظ بتذكار من كل واحدة.

لكن هذا لا يجعلنا ننكر حقيقة الحب بين الرجل والمرأة، أحاول أن أوضح أن مانسميه عادة بالحب هو في الحقيقة خليط من عدة أشياء أُخَر: الرغبة الجنسية، الحماية، الرقة والرغبة في الأمن العاطفي، وأن شهية الذكر الأساسية هي شهية خام ورغبة موضوعية لا ذاتية، بمعنى: "ليست امرأة التي أريدها، بل جميع النساء" باختصار الحب ممكن بين الرجال والنساء، لأن شهية الرجل الجنسية لا تسبب للمرأة أي ضرر، إنه كالنمر يقيم علاقة مع نوع من الظباء السحرية التي يمكن أن يأكلها كل يوم دون أن يسبب لها أذى بالفعل – فهي سحرية – ولاشك أن النمر والظبية سيغرمان في النهاية أحدهما بالآخر، ولكن العلاقة مازالت قائمة في الأساس على جوع النمر وليس على الحب.

وإذا فهمنا ذلك، بدأنا ندرك شيئاً أساسياً عن الإنحراف الجنسي وعن الدافع الجنسي نفسه.

رغبة المرأة أن تُحب لذاتها وأن تُعبد إذا أمكن، وأن تُضفي عليها الحماية، وتُحقق كل رغباتها وأن تعامل كإنسانة باستمرار، ورغبة الذكر في جوهرها لا تهتم بشئ من هذا، وإن وُجد كل ذلك في علاقته بالمرأة، لكنه يضعف من الرغبة نفسها. وهذا هو السبب الذي جعل من "برنارد" لا يقنع تماماً بالعشيقات الأحياء. هناك الكثير من الذئب الجائع فيه، ولكن حيث يمضي في تدمير الأجساد بعد إنتهاكها، فإنه يعطي إشارة تمرد وتحد تجاه المرأة والمجتمع. إن غريزته الذكرية الخالصة قد انطلقت من عقالها، وغدت زئيراً متمرداً ضد الإحباط الذي فرضه عليه العرف والتقاليد.

ليس معنى ذلك أن هذه قاعدة عامة، إن حالة "برنارد" تغطي جانباً واحداً من حاجة الذكر إلى السيطرة والغلبة. رواية "جون برين" غرفة على السطح تكشف جانباً آخر. وهي رواية مشهورة حتى أني لا أحتاج هنا إلا لتلخيص فكرتها: بطلها "جولامبتون" انتوى أن يغوي "سوزان" وهي فتاة من الطبقة العليا، في الوقت نفسه تكون له علاقة مع امرأة متزوجة أكبر منه. رغبة جو في سوزان بنيت على أساس أن والدها رجل غني، وهو من الطبقة العاملة، وسوزان تمثل كل مايريده من الحياة: الجمال والفتنة والتألق والبراعة والثروة. وفي الحقيقة كانت الفتاة فارغة الرأس بلهاء، وحين تزوجها جو لم تكن مخلصة له،وكانت عشيقة جو الأخرى تساوي عشرة من أمثالها، ومشبعة جنسياً أكثر منها، والطريف أن جو لم يكن يحبها ولا يريدها بالرغم من افتتانه الجنسي بجمالها، يريد أن يفترسها

فقط، وهذا دليل أن شهية الرجل الجنسية غريزة إجرامية، غريزة عدوانية تجـاه المرأة، هـو لـص وهـي بيت يريد السطو عليه.

إن موقف الرجال تجاه الجنس يختلف عن موقف المرأة تجاهه. معظم النساء تشعرن بكراهية شديدة غريزية للمجلات الجنسية التي تنشر صوراً عارية للرجال (علقت زوجتي على إحدى هـذه المجـلات بأن الرجال فيها يشبهون قطيعاً من الماشية)، كما أنهن لا يشترين هذه المجلات. السوق الأكبر لهـذه المجلات وسط الشواذ.

قد تكون المرأة مهتمة بـالجنس كـالرجل، ولكـن ذلـك الإهتمـام يختلـف بدرجـة كبيرة وبشـكل شخصي عن اهتمام الرجل.

السادية:

وهـذا يقودنـا إلى اكـثر حـالات الإنحـراف بشـاعة، ولكـن مـن أكثرهـا أهميـة لدراسـة الطبيعـة الإنسانية.. وهي السـادية. ولقـد اشتقت السـادية اسـمها مـن رجـل غريـب ضئيـل الجسـم، يسـمى "دونانين دي ساد" ولد في فرنسا سنة ١٧٤٨.

إن اسم الماركيز دي ساد يبعث في الذهـن صـورة مختلطـة مـن فرنكشـتاين ودراكيـولا، شـخص بعينين حمراويين وأسنان مدببة. وهذا خطأ يشبه الخطأ الذي يجعل الناس يظنـون أن "كازانوفـا" يشبه أبطال السينما، بينما هو في الواقع محتال قبيح الشكل لكنه واثق بنفسه.

كان دي ساد بدين الجسم قليلاً، ورجل متملق مداهن قذر التفكير - ولقد اشتكى سـجَّانوه مـن قذارة حواره وأحاديثه في سنواته الأخيرة - كما أنه لم يفعل شيئاً شريراً جداً، إلا إذا اعتـبرت كتابـة كتب تصدم القارئ عمداً، نوعاً من الجريمة. وأسوأ مـا أُتهـم بـه هـو أنـه سدّد عـدة طعنـات لإمـرأة بسكين، وصب شمعاً ساخناً في هذه الجروح. عمل قذر لكن إذا قورن بما يفعله غيره فهوهين.

سر الماركيز دي ساد هو رغبته في أن يصدم الآخرين. إن لديه عقلية ممتازة، وكـان غنيـاً وضعيفـاً أمام شهواته بشكل شديد، لم يجد أفضل مايفعله في حياته المبكرة سـوى قضائهـا في بيـوت الدعـارة، وأوقعته قضية الشمع الساخن في متاعب مع القانون في سن مبكرة نوعاً ما، وكان قد اختطف السيدة التي كانت تعمل طباخة. ومنذ ذلك الوقت، نادراً ماتخلّص من متاعبه مع القـانون، وسرعان مـااتخذ موقفاً متمرداً وعدوانياً من المجتمع كالذي نراه في جنوح وإجرام الغلمـان. ولقـد كتـب سلسـلة مـن الكتب أُعتبرت صفعة في وجه المجتمع منها جو ستين، وجولييـت، ومائـة وعشـرون يومـاً في سـدوم وغيرهـا. وكـان يسعد في إظهـار الأشـخاص المهمـين كالقضـاة والقساوسـة ونظـار المـدارس، وهـم يرتكبون جميع أنواع الجرائم الجنسية، ومن الواضح أنه كان يكره النسـاء الفـاضلات أيضـاً، وروايتـه

الجوستين" هي عمل ثأري طويل منهن، فالبطلة الفاضلة تغتصب كل صفحتين، بالإضافة إلى أن الرواية هجوم على نفاق المجتمع، يقول "الفضيلة ليست دائماً انتصاراً، بل هي تقود عادة إلى الأسوأ، وانتصار الفضيلة كذبة اخترعها النصابون الذين يديرون المجتمع ليضحكون بها على الفقراء ليظلوا هادئين".

في روايته التالية "جولييت" عكس دي ساد وجه العملة، فهو يروي نجاح أخت جوستين الشريرة.

كثيرون يعجبون بدي ساد، ويعتبرونه كاتباً مهماً، وأنه نوع من الشخصيات المتمردة مثل شيطان ميلتون، لكن لو وقعت في يدك نسخة من كتابه "مائة وعشرون يوماً في سدوم" سترى لماذ يبدو هذا القول نوعاً من الرغبة في أن يكون حقيقياً. هذا الكتاب تعمد أن يكون قذراً لدرجة أنه لا يمكن طباعته وبيعه علناً حتى الآن في انجلترا وأمريكا.

يحدثنا هذا الكتاب عن مجموعة من الرجال الكبار في السن، اجتمعوا في بيت ريفي وقرروا أن يمارسوا كل أنواع الغواية الجنسية في مائة وعشرين يوماً بمساعدة جيش صغير من الغلمان فائقي الجمال، والفتيات الفاضلات الصغيرات، وقد اختطفوا جميعاً، الدوق الذي يقود هذه الحملة وُصف بأنه أحد أكثر الرجال شراً في التاريخ، فقد قتل أمه وأخته وثلاث من زوجاته.

لا يمكن وصف الكتاب بأنه كتاب جنسي، فهدفه ليس الإثارة الجنسية، بل التمرد وبعث الغثيان والإشمئزاز في النفس. ربما أكثر قصص الكتاب معنى، هي التي تحكي عن رجل متعته الوحيدة إغواء الأبرياء دون أن يكون له اهتمام جسدي بهم، بل كل رغبته أن يدفعهم إلى الإنحراف، وهو متحدث لبق يتبع أسلوب الواعظ الديني المتحمس، وحين يقنع البعض في السير في طريق الدعارة فإن ذلك يقنعه، ويبدو شبيهاً بدرجة كبيرة لدي ساد نفسه.

الشئ الوحيد الذي تخرج به من الكتاب هو العدوانية الهائلة لدافع الذكر الجنسي، هنا يعرّي هذا الدافع تماماً.

لم يعش دي ساد ليكمل الكتاب الذي اكتشفت مخطوطته بالمصادفة، والجزء الأخير منه مكتوب بشكل ملاحظات فقط.

ولكن يبدو أن كل المختطفين قد ذبحوا أخيراً ليشبعوا شهوات ثلاثة من الفاجرين، ومن الأفضل أنه لم يكمله، فإنه بعد الصفحات المائة الأولى يصبح كتاباً مرعباً. إنه كفيل بأن يصدم أكبر متحمس للكتب القذرة (لقد أعرته مرة لعضو في نادي الأدب الجنسي، حيث يتبادل الأعضاء هناك نماذج مكتوبة من المخطوطات الجنسية القذرة، فأعاده إلي مرتبكاً واعترف بأنه لم يستطع قراءة سوى الصفحات القليلة الأولى).

لقد أصر دي ساد أن يحدث صدمة لمن يقرأه، ولو كانت لديه شجاعة كافية فلربما أصبح فوضوياً يتعامل بالقنابل، ومع ذلك فهناك منطق جنوني عند دي ساد يذكرنا بالهمجي الذي حطم جهاز الراديو ليكتشف من أين تأتي الأصوات، ثم حين لم يجد شيئاً، مضى يحطم كل صمامات الجهاز.

نرى ساد مع كل ذكائه فشل في أن يرى ماهو واضح تماماً: إن المتعة تتوقف أن تكون متعة لو دفعناها إلى حدود معينة. فكأس الويسكي تُنعش المرء وتبعث فيه إحساساً بالراحة، الزجاجة قد تجعلك مريضاً، أما إذا شربت زجاجتين بسرعة فستموت.

يتمتع دي ساد في عصرنا بشعبية معينة، وهناك نقاد محترمون كتبوا كتباً عن أفكاره، لكن يجب أن تعرف أن شعبيته تعود إلى ذكائه لا إلى ساديته.

معظم الساديين الذين عرفهم التاريخ - تاريخ الإجرام - كانوا أغبياء ومتوحشين وقساة. وكلما ازدادت درجة الغباء، أصبحت السادية خاضعة لقانون العوائد المتناقصة.

خذ مثلاً حالة القاتل في ضوء القمر، التي حدثت في ولاية تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية، اقترب هذا الرجل من عربة فيها رجل وامرأة يتغازلان، شد باب العربة فجأة ففتحه، وأفقد الرجل وعيه بضربةمسدس على رأسه، ثم طارد الفتاة وألقاها على الأرض بقوة واغتصبها.

تجربة غير سارة، لكن على الأقل نفدا بحياتهما ولم يحدث لهما مكروه سوى كدمة في رأس الرجل. وبعد شهر فاجأ الرجل نفسه زوجين يتداعبان في عربتهما على بعد ميل من مكان الحادث السابق، هذه المرة أطلق الرصاص على رأس الرجل، وجرّ المرأة خارج العربة، وحين اكتشفت جثتها المضروبة بالرصاص أيضاً، وجد أنها قد أُغتصبَت وقُتلت بعد ساعتين. بعد شهر آخر، ركن رجل وزوجته عربتهما في المنطقة نفسها بعد حفلة رقص، وقد أطلق الرصاص على الرجل من الخلف ثلاث مرات، وجُرَّت الفتاة الصغيرة من العربة، وقال الطبيب الذي فحصها أنها عُذبت لمدة أربع ساعات ثم أُغتصبت قبل أن تُقتل.

حاول هذ المجنون أن يرتكب جريمة أخرى، فأطلق النار على مزارع من خلال نافذة البيت، كما أطلق النار على زوجة المزارع، اندفعت الزوجة للخارج لتستنجد بالجيران، فهرب الرجل ومات المزارع متأثراً بجراحه، ولم يُسمع عن المجنون ثانية، ولكن بعد عدة أيام انتحر رجل غريب عن المنطقة بالقفز تحت أحد القطارات، ووجدت بالقرب عربة محترقة توافقت مواصفاتهامع سيارة القتيل. قد تكون مصادفة لكن على الأرجح هي سيارته.

لو نظرنا إلى هذه الحالة بإمعان أكثر، لوجدنا الرجل يندفع أكثر وأكثر إلى الجحيم. في البداية كان محبطاً جنسياً فقط، وأشبع رغبته بالعنف. لكنه أصبح يرى نفسه كنوع من الذئاب، وحين ينظر إلى الناس في الشارع، أو يشربون في البار، يقول لنفسه: "لو قرأوا مافي ذهني فسيقتلوني ككلب

مسعور"، شعر بأنه منبوذ، ولكن أصبحت رغبته الجنسية أقوى،لو فكر فيها بعقل لأدرك أن ليس هناك فرق حقيقي بين النوم مع عاهرة وإغتصاب فتاة غريبة، فالجسد الأنثوي هو نفسه، ومايفعله هو الشئ نفسه. ولن يستطيع أن يفعل أكثر حتى لو نام مع ملكة سبأ، ولكنه غير قادر على التفكير السليم. الشعور بالإثم أو الذنب أعمى بصيرته، وجعل منه كتلة من العواطف المنفلتة، تشبه العطش الذي يسوء ويشتد وإذا لم يُروَ بالماء القراح فلن يرويه شئ، لكنه لا يدرك ذلك، ويسعى إلى إشباعه بالفعل العدواني تجاه المرأة. وهكذا، في الحالة الثانية يمارس عنفاً أشد، ويقتل المرأة بعد ساعتين، ولم يكن هذا كافياً أو مشبعاً له، وحاول أن يمضي أبعد من ذلك، فعذّب الفتاة مدة أربع ساعات، ولكن كان الأمر كمن يريد أن يروي ظمأه بالبنزين، كل مافعله يزيد من شعوره بأنه وحش إجتماعي منبوذ، ولم يعد قادراً على إقامة علاقة إجتماعية عادية مع أي أحد، فماذا عليه أن يفعل الآن؟ من الصعب المضي أبعد من ذلك، فكل حادثة تزيد من فرص القبض عليه - آنذاك تسلح كل الرجال في المنطقة واستجوب البوليس آلاف الرجال - ربما فكّر في الإنتقال إلى منطقة أخرى، لكنه إذا ارتكب حوادث مشابهة فإن القبض عليه سيكون سهلاً لأنه غريب، وأخيراً لم يجد حلاً سوى الإنتحار.

حالة جاك السفاح تقريباً مشابهة، كان السفاح مجرماً مجنوناً أرعب شرق لندن، وكانت جرائمه أكثر بشاعة من جرائم القاتل في ضوء القمر، فقد كان يستخرج من ضحاياه أجزاء معينة من أعضائهم الداخلية، لكنه كان يقتلهم بسرعة دون تعذيب. وازدادت حالته سوءاً، وأصبح تقطيع الأعضاء متقن في جريمته الثانية والثالثة، ثم قتل امرأتين في ليلة واحدة، ثم قتل امرأة داخل بيتها، وقضى عدة ساعات يقطع أعضاءها، وبعد ذلك لم يسمع عنه أحد. وحتى هذا اليوم لا يعرف أحد أدنى فكرة عن جاك السفاح، لكن من المستحيل ألا نشك انه إما انتحر أو جُن تماماً وقضى بقية حياته في مصحة عقلية دون أن يشك أحد أنه السفاح.

لو فكرنا في مثل هذه الحوادث، فسنعرف شيئاً عن أنفسنا لم ندركه من قبل. نحن نشعر أننا ننتمي للمجتمع الإنساني، وهذا يجعلنا عقلاء متوازنين نفسياً، ولكن هل ندرك درجة قربنا جميعاً من الجنون؟ نحن نظل عقلاء لأننا لسنا مغامرين بما فيه الكفاية. ونادراً مانسأل أسئلة تجعلنا ندرك كم هو كبير وموحش هذا الكون، نحن نظل ضمن حدودنا الضيقة الصغيرة واهتماماتنا الضئيلة، نأكل حين نجوع، وننام حين نتعب، ونظل دائماً على بعد عن الحواف الخارجية للوجود. لكن هؤلاء المجرمين الجنسيين، ذهبوا بعيداً وتجاوزوا الحدود وتخطوا الحافة.

لقد اكتشف علماء الحيوان أنك إذا ربيت كتكوتاً دون أي نوع من الحنان أو التعلق بشئ في الأسابيع الأولى من حياته، فسيصبح عاجزاً تماماً عن التعلق بأحد بعد ذلك ويتوقف عن احتياجه لأحد.

وإذا أخذت الكتكوت وعمره يوم واحد، ووضعته في قفص به سلحفاة، فيسيعتبر هذه السلحفاة أمه، وسيرتبط بها بشدة رافضاً تركها، إنه يحتاج في أسابيعه الأولى إلى حنان الإرتباط بشئ ما، حتى

أنه يتعلق بأي مخلوق يزوّده بالطعام والصحبة. لكن إذا لم يحصل على ذلك، فسيموت شيء داخله، وسيكون دوماً غريباً عن المجموع. وهذا صحيح في جميع الحيوانات. إذا حُرم فأر صغير من حنان الإرتباط بأحد، ثم وضعته في قفص مع عدة فئران فسيصبح مجرماً، رافضاً إتباع القواعد الإجتماعية لمجتمع الفئران ويصبح لصاً ومغتصباً.

وهذا ينطبق على الإنسان أيضاً، فمن المفروغ منه أن القاتل في ضوء القمر لم يكن لديه أي حنان أو ارتباط بأحد في طفولته المبكرة، وربما تربى في ملجأ للقطاء. وإذن فإن هذه الخيوط الدقيقة التي تجعل معظمنا في حالة عقلية سليمة، لم تكن موجودة لديه، والعالم بالنسبة إليه قفص ضخم مملوء بالفئران المصممة على أن تعطيه أقل القليل، من المحتمل أنه كان لصاً – من الغريب أن معظم مجرمي الجنس القساة بدأوا لصوصاً حقراء – ويوماً ما يدور في ذهنه أنه يستطيع سرقة الجنس أيضاً من المجتمع، ويبدأ السقوط لينتهي تحت عجلات قطار.

انظر مثلاً حالة "مارلين مونرو" التي كانت أشهر ممثلة سينمائية في العالم. حين انتحرت سنة ١٩٦٢ كانت في السادسة والثلاثين، جميلة وغنية وكل العالم معجب بها. إذن لماذا تقتل نفسها؟ نجد الجواب في سنوات حياتها الأولى. فهي لم تعرف أباها قط، فقد هجر أمها بمجرد علمه بأنها حامل (لم يكونا متزوجين على كل حال). كانت أمها مختلة العقل وقد جُنت تماماً بعد ذلك. وهكذا فإن الصغيرة مارلين وأسمها الحقيقي نورما، تنقلت من بيت إلى بيت وربّاها عدد من الآباء، وفي أحد هذه البيوت اعتدى عليها أحد السكان جنسياً وهي في التاسعة من عمرها، كما أنها قضت سنتين في ملجأ للأيتام.

وهكذا فإن تلك الخيوط الجميلة الواهنة كخيوط العنكبوت، والتي تحفظ علينا عقلنا في الحياة الغادية، لم تتهيأ لها فرصة أن تتكوّن بشكل سليم، ولم تتح لها الفرصة أن تأخذ حياتها كقضية مسلم بها. وحين جاءتها الفرصة لتستقر وتصبح زوجة سعيدة لم تكن قادرة على الوثوق بهذه السعادة، كانت تتوقع أن ينهار كل شيء في أية لحظة، لم تكن تستطيع أن تسترخي، وبشكل ما كانت حالتها العقلية مشابهة لتلك التي للقاتل في ضوء القمر، فهي كانت تريد أيضاً نوعاً من الواقع يكون أكثر عمقاً من الحياة العادية.

كلنا لدينا شخصيات ثابتة، فالثبات أصبح عادة فينا، ولقد اعتدنا أن نثق في الحياة، "مارلين مونرو" لم تستطع قط أن تثق بالحياة على طريقتنا، وبالرغم من أن زواجها من الكاتب المسرحي آرثر ميللر كان سعيداً، وكان الإثنان متوافقين بصفة خاصة، فإنها لم تعامل هذا الزواج كشيء دائم، بدا إنها تواجه إرغاماً ما لفصمه نتيجة لنوع من الخوف أن ينكسر.

ماعلاقة كل هذا بالسادية؟ علاقة وثيقة بالطبع. فقد أردت أن أوضح أن الحياة ليست عادية تماماً، وثابتة وطبيعية كما تبدو، في معظم الأحيان كسلنا هو الذي يجعلها تبدو كذلك.

قد تجيبون "شكراً لله على هذا الكسل"، لكنكم لستم على صواب تماماً، كسلنا قد يبقينا عقلاء وسعداء، ولكنه أيضاً يبعدنا عن التفوق والوصول إلى الإنسان الكامل.

مثل آخر، لوسيا جويس، ابنة الروائي الإيرلندي جيمس جويس، التي أصيبت بالجنون. حين كانت طفلة كان جويس دائم التنقل من بلد إلى آخر، وكان عليها أن تتعلم الفرنسية والألمانية والإنجليزية، وضيعت سنوات من عمرها، في كل مرة تتعلم فيها لغة جديدة. كانت تحب أباها وتكره أمها، لكن جويس كان بارد العواطف، محباً للعزلة، ويجد صعوبة في إبداء حنانه وعطفه. في سنوات العشرينيات من عمرها بدأت تظهر عليها بوادر الإنهيار العصبي، قالت لأحد أصدقاء عائلة أبيها بصراحة "مشكلتي أني أتوق بشدة إلى الجنس". ثم وقعت في حب الكاتب الإيرلندي صمويل بيكيت، وهو أسوأ شخص يمكن أن تقع في حبه فتاة، لأنه هو أيضاً يعاني نوعاً ما من التفكك الحياتي، كان يستلقي مثلاً، طوال اليوم في السرير لأنه لا يجد مبرراً لأن ينهض. وأعلن صراحة أنه لا يمكن أن يحب لأن داخله ميت. وهكذا بسبب حياتها المحبطة، وخيبة أملها في الحب، ساءت حالتها، وأصبحت عنيفة في تصرفاتها. وإن نزلت طريقاً منحدراً فمن المستحيل أن تتوقف، إنها بالضبط الآلية نفسها التي تجعل من جرائم الإغتصاب تزداد عنفاً، بمجرد انتزاع الخيط الأول فلا يوجد سبب مقنع لترك البكرة سليمة.

تريد الضحية أن تجد الثبات، بإلقاء نفسها بشدة إلى أسفل المنحدر، دون أن تدرك أن في نهاية المنحدر يكمن الموت.

لقد ذكرت حالة لوسيا جويس بسبب جانب غريب في أمرها، فبينما هي تغوص في الجنون، كانت تمر بها فترات من الصفاء الغريب، تعطيها قوة بصيرة ثاقبة. وبناء على أقوال أبيها فقد أصبحت متنبئة تستطيع رؤية المستقبل، وفي مناسبات عدة تنبأت مقدماً بوفاة صديق أو قريب بدقة شديدة، وبأحداث وقعت كما تنبأت بها. كما كانت رؤيتها لما في داخل الأشخاص مدمرة، ففي نوبات غضبها كانت تقول أشياء تحطم ضحاياها لقسوتها الشديدة. ولكنها حقيقية. ولو كانت لوسيا محظوظة في حبها وتزوجت وهي في العشرينيات من عمرها، لبقيت بالتأكيد عاقلة تماماً.

أن تكون عادياً وطبيعياً فتلك ميزة كبيرة، ولكنها تقودك لتصبح فرداً عادياً متوسطاً كالآخرين.

الفصل الثالث

الذكـر المنتصر

يقـول البعـض أن "الإنحـراف" لا يثبـت أي شـيء، فهـو بطبيعتـه الخاصة مرض، ولذا فهو استثناء.

إن وجهة النظر هذه، قائمة على فكرة زائفـة عـن الدافـع الجنسـي.. على الأقل عند الذكـر. فالوظيفـة البيولوجيـة الوحيـدة للذكـر هـي تلقيح الأنثى، وأية ممارسات جنسية بعيـداً عـن هـذه الوظيفـة، قـد تتحول تحت ظـروف معينـة إلى أي شـيء آخـر.. انحـراف أو جريمـة وتعالوا لنرى:

أصدر الكاتب الفرنسي "هنري باربوس" رواية باسم "الجحيم"، وهي عـن رجـل في الثلاثـين مـن العمر هبط باريس للبحث عن عمل، كان وحيداً ولا يهتم به أحد، فشعر بـأن الحيـاة خانقـة وكئيبـة وبلا معنى. وأنها حلم، وحين يموت يصبح كأنه لم يعش.

ثم يكتشف ثقباً صغيراً في حائط غرفته في الفندق، ومن خلاله استطاع أن يتلصـص علـى الغرفـة المجاورة. وفجأة انفتحت أمامه حيوات الآخرين. أول مرة تلصص فيها، رأى الخادمة ترتـب الغرفـة، لم تلفت نظره من قبل، فقد كان يراها امرأة فظة تفوح منها رائحة كريهة، أما الآن فقد جردّها الليل من القبح، ومسح عنها معالم البؤس والألم. أخرجت خطاباً من صدرها، ووقفت قرب النافذة تقرأه، ثم قبلته وخرجت. أصبحت فجأة شخصاً بالنسبة إليه، وبدأ يشعر بأنه أقل وحدة.

منذ ذلك الحين، بدأ يقضي معظم وقته يتلصص من ثقب الحائط، وبدأ يدرك ببطء حقيقة الحياة.

بدون ادراك معنى الحياة، نكون كمن يعيش في قفص زجاجي، ويعجز في الوصول إلى الآخرين. بطل الجحيم هرب بالمصادفة من قفصه.

من المؤسف أن الرواية سيئة جداً، فقد كان بالإمكان، بفكرتها هـذه، أن تصبـح إحـدى الروائـع الأدبية. لكن ميل المؤلف الشديد نحو التأثرية والعاطفية - كما نرى من حكاية تقبيل الخادمة للرسـالة - أفسد الرواية. ولكن برغم رداءتها فإن فيها فقرات مهمة، وتلقي الضوء على بعض جوانـب الدافـع الجنسي أكثر من أي كتاب آخر قرأته.

حين تجلس امرأة غريبة أمام المدفأة وترفع فستانها، فإنه يكتب "كـل جسـدي كـان يصـرخ كـأن شخصاً ما قد دمغه". وبهذه الكلمات وضع يده على جزء من الإلحاح الجنسي الحاد والمرعب للدافــع الجنسي الذكري. (يجب أن نذكر أن باربوس كتب روايته سنة ١٩٠٨ حين كـانت النسـاء ترتديـن "جونيلات" تصل إلى كاحلهن، ومجرد رؤية "بطة" ساق المرأة كان كفيلاً بإثارة الرجل). ثـم خلعـت المرأة ثيابها، فيقول "فتحت عيني على آخرهما، نظرتي ثقيلة كاللحم، تتشوق إليها، فبرغم القوانـين، وبرغم الملابس، فإن نظرة الذكر، دائماً، تتوق إلى المرأة كثعبان يزحف نحو حجره".

وكان عليه أن يكبح الدافع، حتى لا يكسر الحائط وينتدفع إلى الغرفة الأخرى، ويفترسها.

إنه تعبير دقيق للإلحاح الصرف لحاجة الذكر إلى المرأة، وبعد ذلـك يصـوّر بشـكل أوضـح. كـان يسير في الشارع المملوء بالنساء، ويشاهد ثوب فتاة تركب الترام، ترفعه الريح، فيعترف "ليست امرأة واحدة التي أريدها، بل كل النساء". ويلتقط عاهرة من الشارع ويذهب معها إلى منزلها، لكنه يـدرك أنه لم يكن يسعى لهذا إطلاقاً، أن الأمر جاء كضربة مفاجئة، ووجد نفسه ثانية على الرصيف معذبـاً ومشوش الفكر. هنا تقع ذروة الرواية، أما بقية أحداثها فقد سارت في هبوط.

يشاهد عاشقين صغيرين يمارسان أول تجربة جنسية لهما، ويراقب امرأة متزوجة "جاءت مع عشيقها ويسمع كثيراً من تفاصيل حبهما بشكل مسرحي، ويشاهد فتاتين تمارسان السحاق ويتعاطف معهما" كل منهما تحب الأخرى، وأما الباقي فلا يهم، أن تكونا منحرفتين أوعاديتين، ملعونتين أو مباركتين، لا يهم، إنهما تحبان بعضهما، وتمتلك كل منهما الأخرى بعمق".

ويدرك من خلال تحديقه في الغرفة المجاورة، أن الحياة أكثر تنوعاً وسحراً مما عرف، وأن الجنس أمر معقد بلا نهاية، ولا يمكن فهمه حتى لو قضينا العمر في دراسته.

"يتشابه كل العشاق في كل مكان. يقعون في الحب بالمصادفة. يتقابلون، ويرتبطون بما يراه أحدهما في وجه الآخر. ويضيء كل منهما بمحاسن الآخر الجارفة، التي هي نوع من الجنون. ويؤكدون حقيقة الوهم، ويحيلون، لفترة قصيرة، الزيف إلى حقيقة. أشاهد الحب بكليته، أشاهده عن قرب شديد، يبخ في وجهي، عبق حرارة الحياة، كالبخور، محققاً هدفه من الجنون والعقم".

لقد أدرك "باربوس" شيئاً مهماً جداً، وجرؤ على القول بأن الجنس، بالنسبة للرجل، ليس موضوعاً لإهتمامه الكبير فقط، بل يمكن أن يكون ناراً ملتهبة تجعل من كل شيء آخر تافهاً بلا قيمة لدرجة العبث.

كما وضع يده على أحد الجوانب الأساسية في الدافع الجنسي، وهي تلك الرغبة في دخول حياة الآخرين، في الخروج من القفص الزجاجي الذي يحيطنا من الميلاد حتى الموت.

النقطة الأولى هي المفتاح لأحد أكبر أسرار الدافع الجنسي.

إن حاسة الشم، في معظم الحيوانات، هي العامل الأكثر أهمية في الجذب الجنسي. فالكلبة مثلا، تفرز مادة تسمى "الودق" من غدد خاصة في منطقة الفرج، لا يمكن للكلاب مقاومتها، وتشمها من على بعد كبير، فتنجذب إليها.

الأنثى في البشر، لديها غدد مشابهة تقع خلف مدخل الفرج، تسمى غدد "بارثولينز"، لا تفرز رائحة تجذب الرجل، ولكن مادة لزجة تساعد في العملية الجنسية.

فالرجل لا يشتهي المرأة من خلال حاسة الشم، بل من خلال حاسة البصر. وفي الواقع أن الإثارة التي تحدثها حاسة البصر، تكون من القوة، بحيث أن الفعل الجنسي نفسه يصعب أن يجاريها، مما يودي ألا يحقق الفعل الجنسي درجة الرغبة التي لدى الذكر، خاصةً حين يكون الرجل مع المرأة في السرير والضوء مطفأ، مما يجعل حاسة البصر تتوقف عن الإثارة، وقد ينتج عن هذا نوع من الشذوذ لاشباع الرغبات.

في السيرة الذاتية لفرانك هاريس، يصدم القارئ على الفور، للأهمية الكبرى التي يضفيها على حاسة البصر. وكان في كل مرة، يمارس الجنس مع فتاة، يُسرع إلى تعريتهاوتفحصها، وحتى بعد

الإنتهاء، كان يصر على بقاء الشموع مضاءة، ويعود لتفحص جسد عشيقته. إن الحاجة للإثارة البصرية أقوى عنده من غيره من الرجال.

وقد حاولت الإشارة إلى هذا الموضوع في روايتي "رجل بلا ظل"، فقد توقف بطلها "سورم" عند دكان يبيع الأدوات النسائية، ليشتري بعض الجوارب لرفيقته التي سيقضي الليل معها. كانت هناك عدة مقصورات صغيرة للسيدات، لقياس مايخترنه من ثياب، وفي إحدى هذه المقصورات، كانت هناك سيدة تخلع فستانها دون أن تجذب الستارة.

ويصف "سورم" مشاعره بأنها أصبحت كعود كبريت ألقيته في برميل من مسحوق البارود، ارتباك مفاجئ ورغبة شديدة مرعبة. وفي طريقه إلى شقة رفيقته تأمل في عبثية هذه الرغبة التى مازالت تبعث الرجفة في جسمه. كانت المرأة في متوسط العمر وأقل جاذبية بكثير من فتاته الصغيرة، لكن هذه النظرة الخاطفة إليها أثارت فيه رد فعل أقوى مما قد تثيره فيه فتاته.

ويرجع السبب في ذلك، إلى أن أعظم قوة مثيرة جنسياً للرجل هي النظر إلى امرأة عارية أو شبه عارية. وهنا نواجه عبثية الحالة التي ذكرها "باربوس" صاحب رواية الجحيم، حيث أن ذهاب بطله مع عاهرة إلى السرير، فشل في إشباع رغبته، فرغبته كانت أعمق بكثير من أي إشباع ممكن.

النقطة نفسها، تناولها "فيليب دي بروين" في روايته "تهليلة الوثني"، فقد كان بطله يستلقي على الشاطئ يراقب فتاة جميلة جداً في ملابس الإستحمام، تسير على الشاطئ، وفكرّ أنه من المستحيل أن تشبع هذه الفتاة الرغبة التى تجتاحه إلا إذا قفز عليها ومزّق ثياب الإستحمام، أما أن يتعرف عليها، ويقنعها بالذهاب معه إلى السرير، ويمارس الجنس معها، كما فعل بعد ذلك، فكل هذا سيكون نوعاً من الهبوط وليس الذروة.

أحد الأسباب الرئيسية لهذا الشذوذ هو أن العقل نائم، ولأنه نائم، أو متثائب أو وسنان فإنه لا يحتفظ بالإثارة، إنه ينساها بعد دقائق من بدايتها، كما تنسى الأفكار التي تمر برؤوسنا. ونحن على مشارف النوم، إنه لا يملك القوة الكافية لأن يوّحد بين العمل الجنسي نفسه والإستثارة الأصلية، إنه كالطفل الذي لا يستطيع حمل شيئين في وقت واحد، فعليه أن يسقط أحدهما ليركز على الآخر.

ولذلك، علينا أن ندرك شيئاً مهماً، بأنه لا يوجد مايسمى بالجنس العادي أو الطبيعي أو الجنس غير العادي.

كل الجنس قائم في جوهرة على غير العادية أو الطبيعية. وهذه العبثية سببها أن العقل نائم أو منوم، والرغبة دائماً أعمق من الإشباع، ولن يوجد الجنس الطبيعي حتى يستيقظ عقل الرجل.

وهذه نتيجة مزعجة ومقلقة، لكن من الأفضل مواجهتها.

ولنأخذ حالة "جيرالد تومبسون" وهو أمريكي أعدم بسبب جريمة جنسية ارتكبها. كان ومبسون، بعكس معظم المجرمين الجنسيين، شاباً أنيقاً، يعمل في وظيفة جيدة، وخطيبته فتاة جميلة. كان في الليالي التي لا يرى فيها خطيبته، يسير بعربته في الطرقات، حتى يصادف امرأة بمفردها، يوقف العربة ويسحبها داخلها بالقوة ويغتصبها، ثم يلتقط لها عدة صور. وقد قام بأكثر من خمسين حادثة مشابهة، دون أن تبلغ عنه النسوة، خوفاً من افتضاح صورهن. وكان بإمكانه أن يستمر لسنوات في عمله هذا، لولا أنه بالمصادفة قتل إحدى ضحاياه، وطلب البوليس ممن يملك دليلاً على القاتل أن يتقدم به، مع الوعد بالمحافظة على السرية المطلقة، وحين تقدمت الضحايا للشرطة سهل القبض عليه.

الطريف في هذه الحالة، هو المنطق الجنوني لأعمال "تومبسون"، فقد كان يحاول تطبيق فكرة بطل باربوس في رواية الجحيم: "ليست امرأة واحدة التي أريدها، بل كل النساء". لقد أدرك أن الرغبة تسير أعمق من الإستجابة، وحاول أن يعالج ذلك بطريقة منطقية تماماً، ومن الخطأ أن نطلق عليه غير طبيعي أو شاذ، كان استثناءاً منطقياً فقط، وشخصاً غير مكبوت.

ولنأخذ حالة أخرى توضح ماأقصده بشكل أقوى.

قُدم شاب يدعى "روبرت اروين" إلى المحاكمة لجريمة قتل ثلاثية. فقد قتل امرأتين ورجلاً، ولم يكن هناك أي إعتداء جنسي.

وقدم طبيبه النفسي "فردريك ورثمان" للمحكمة، تقريراً عن حياته.

لقد استحوذت عليه وهو صغير فكرة ضعف الإرادة البشرية وقصور ذاكرة الإنسان. ولقد قال لطبيبه "لقد قرأنا جميعا شكسبير والإنجيل والقاموس، فكم نتذكر منها؟ القليل جداً، ومع ذلك فكلها هناك في عقولنا، كل سطر، كل مقطع، كل كلمة، سيأتي وقت يمكن للرجل ان يستلقي على السرير في الليل ويفتح كتاب شكسبير الذي في ذهنه ويقرأ ثانية وهو مغلق العينين.

هل سبق لك أن ذهبت لمشاهدة فيلم مرتين؟ ربما جميعاً فعلنا ذلك، لأننا لم نستطع أن نشّغل ذلك الجهاز الذي في عقولنا، فالفيلم يوجد هناك طوال الوقت في ذهننا، ومادمت قد رأيته مرة واحدة، فيمكنك البقاء في البيت ومشاهدته ثانية في ذهنك وأنت مغمض العينين، لكن ذلك يتطلب تدريباً شاقاً وإرادة قوية فوق طاقة الفرد العادي، لذا أود أن أختزل كل كمية ممكنة من الطاقة التي أملكها، جسمية وعقلية".

في مرحلة مبكرة، قرّر "اروين" أن حياته الجنسية تسرق منه طاقة كبيرة، وهكذا فقد حاول أن يقطع قضيبه. وآنذاك قابل عالم النفس لأول مرة، وعندما استمع إلى تصوراته، قرر أن نزواته غير

ضارة، وقد كرر رأيه هذا في كتابه "مظهر العنف" ا لذي وصف فيه الحالة. ولم يبد أن هناك ماصدمه في تصورات "اروين" فهذا النوع من النزوات هو الذي قدم للعالم كل رحاله وعلمائه العظام.

إن المصير المأساوي "لأروين" سببه أنه لم يقابل أحداً يتعاطف مع أهدافه، والتحيز ضده كان كبيراً جداً، فأصابته حالة من الشعور بالإضطهاد الحاد، وارتكب جريمته، التي بسببها قضى بقية حياته في السجن.

إن "اروين" يشبه "تومبسون" لكنه أكثر ذكاءً وأقل وحشيةً، وقد رأى مشكلة عمي الناس عن رؤيتها، وبحث عن حل، وكان حله خاطئاً، وكان سيكتشف ذلك لو وجد شخصاً ما استطاع أن يناقش معه مشكلته بذكاء.

ماهو الهدف من المقدرة على قراءة شكسبير في الظلام؟ أو مشاهدة فيلم مرة ثانية في ذهنك؟ إن العقل البشري يحتاج إحساساً أعمق بالهدف والرؤية، ومازال ذلك في جوهره صحيحاً.

لكن الشيء ذا الدلالة، أن رجلاً ذكياً مثل عالم النفس "ويرثام" يخطئ في الحكم على هذه الرؤية الصحيحة لإروين ويصفها بالجنون!.

ولنرجع الآن إلى النقطة الثانية التي أثارها "باربوس" في روايته الجحيم، ومحاولةُ بطله التدخل في حياة الآخرين من خلال ثقب في جدار.

لو فكرنا بإمعان، سنجد أن من أكثر الأمور وضوحاً في عالمنا، أننا جميعاً نختنق بحياتنا، إلا في لحظات نادرة. هناك طرق عديدة للهروب من شعور الإختناق هذا، وأحياناً يزول وحده للحظات، في صباح يوم مشرق أو عند بداية اجازة من العمل، حيث يبدو العالم فجأة أكثر سعادة وأرحب مكاناً.

إحدى وسائل الهروب من الشعور بالإختناق هي اللجوء إلى الخمر، كأس من النبيذ أو الويسكي في أول المساء، ستجعلك تشعر فجأة أن الحياة تستحق أن تُعاش، وهذا دليل على وجود الإحساس بالإختناق. وهو ناتج عن الوعي العالي والمتطور لدى الإنسان. فالحيوانات تعيش في عالم شفقي Twilight، فوعيها ليس لديه قوة وعينا الباحثة المنيرة، ولكن هذا يعني أنها أقرب إلى غرائزها وحبها للحياة، من سمع مرة عن حيوان انتحر؟ أو عن بقرة أحست الملل؟

هل الخمر هي الحل للتخلص من هذا الشعور؟ أو المخدرات كما اقترح يوماً عازف الكلارنيت ميزرو، الذي قال إنه حين تناول حبة مخدر، خلصته من الضيق والملل الذي كان يشعر به، وأنه أحس بأن كل ذرة في جسمه بدأت تومض بالبهجة مشعلة مليون لمبة في جسده لا يعرف كيف وجدت هناك؟

كلنا يملك هذه المصابيح في جسده، ولكن التيار مقطوع عنها، لقد سحبه الضوء الكاشف للوعي، ولذلك نحس بمشاعر غامرة من الراحةو السعادة ونحن على مشارف النوم، فالضوء الكشاف الأساسي للوعي لم يعد يسرق كل الكهرباء.

بالطبع هناك اعتراض على المخدرات أو الخمر كحل، فهما يمنحان سعادة على حساب الوعي، وأي فرد يستطيع التأكد من ذلك، فحين تسكر فأنت لا تلاحظ الأشياء إذا لم تنظر إليها مباشرة، وتصبح غرائزك مبلبلة، وكلامك أقل إحكاماً ودقة، وكلنا يعرف، تقريباً، طرائف المخمورين، مثل الذي حاول أن يقرأ الكتاب معكوساً، أوذلك الذي استغرق ثلث الساعة لإدخال المتاح في باب شقته.

وكذلك المخدرات، فهي تضعف الوعي، وتقلل الإحساس بالهدف والمقدرة على التعامل مع الواقع.

لكن تذكر الإحساس الذي تشعر به في صباح يوم ربيعي، أو صباح أول يوم في إجازتك، تبدو أحاسيسك آنذاك وكأنها تتفتح كلها، وتجد نفسك تعي بوضوح أماكن وأزمنة أخرى، حتى السماء تبدو لك كرمز للحرية، وذلك دون أن تفقد التركيز أو الوعي كما يحدث في الخمر والمخدرات. كما يمكنك التعامل مع مشكلات الواقع بكفاءة أكثر من المعتاد، ليس بسبب قدرتك على التركيز فقط، ولكن لأن وعيك مملوء بطاقة معينة من التفاؤل أيضاً، وهو مالا تستطيع الخمر أو المخدرات أن تعطيه إليك.

مهما كان الإختناق أو الملل الذي نحس به، فيجب ألا نتحمل لحظة واحدة من فقدان الوعي. فنحن ندين بكل ماوصلنا إليه لهذا الضوء المتقد من الوعي الذي نجده الآن منهكاً.

لماذا نظن ان الشعراء دائماً ليسوا علىوفاق مع العلوم والرياضيات؟ لأنهم يجدون الحياة أكثر جمالاً ومتعة من أن نضيعها على شيء مضجر كالرياضيات والعلوم.

فكّر في الإكتشافات القليلة التي قادت إلى تقدمنا الحالي: يُلقي جاليليو بثقلين من برج بيزا المائل، فيكتشف أن أثقلهما وزناً يسقط على الأرض بالسرعة نفسها للجسم الأقل وزناً. يجلس نيوتن تحت شجرة تفاح ويتساءل لماذا تسقط التفاحة على الأرض بدل أن تطفو كالبالون في الهواء؟.

هل تتخيل شاعراً يفعل شيئاً كهذا؟ إنه مشغول في التطلع إلى المنظر أو كتابة قصيدة.

حضارتنا تدين لمللنا وضجرنا، لو كنا لا نَمَلّ بسرعة لأصبحنا ودعاء كالبقر. وبينما يدفعنا الملل لبناء المدن والطرق والتقدم، إلا أن له أحياناً مساوئ كبيرة. فهو يمنعنا من معرفة خطوتنا التالية. في الأيام التي كانت تُستخدم فيها الخيل لجر عربات الفحم، كانت تُعصب عيونها حتى لا تضطرب في سيرها. عينا الإنسان معصوبتان بالملل، ولقد دفعنا ذلك لعمل أشياء مدهشة، لكن العصابة على العينين تمنعنا من رؤية الطريق أمامنا. ولا نستطيع أن نلقي بهذه العصابة، ولوفعلنا لانغمسنا في تناول الخمر والمخدرات، فنفقد أكثر مما نكسب. الفائدة الوحيدة لها، إذا كانت هناك فائدة، أن تجعلنا نسترخي لفترة لإستجماع قوانا، لكنها تدمر ذلك النظام العقلي الذي يستطيع اعطاءنا مانريد. إنها

تشجع العقل على السبات. لذا يجب علينا أن نتعلم كيف نجعل الوعي الإنساني أكثر حدة، والجنس يعطينا بعض المفاتيح الهامة لهذه العملية.

الجنس حيلة أو وسيلة سحرية، وعلينا أن نجد سرها.

العشاق الكبار:

"برغم القوانين،وبرغم الملابس، فإن عيون الذكر تتوق إلى الأنثى دائماً، وتبحث عنها كالثعبان يسعى إلى جحره". صورة جميلة، يصور فيها "باربوس" حال كل الرجال. فكل الرجال الأصحاء، يودّون لو عدّروا النساء كما يُحدر الثعبان فريسته. مَن منا لا يحسد السلطان الذي يلتفت إلى وزيره، حين يرى فتاة جميلة، ويقول له: "احضرها إلى قصري الليلة".

لكن هل هذا فعلاً هو مايجعل حياة الإنسان الجنسية كاملة؟ بالطبع لا، ولعدة أسباب، منها أن السلطان سيضجر من حريمه كما يضجر أمين المكتبة من كتبها. مايريد السلطان أن يجربه مرةومرة هي تلك الأحاسيس التي تنتاب شاباً يمارس الحب لأول مرة، ويعرف أن حبيبته على استعداد لأن تمنحه نفسها كلية.

إن الحريم المملوء بالنساء، لن يكون مثيراً بعد عدة أسابيع، أكثر من حظيرة مملوءة بالأبقار.

مايبزغ بالتدريج في ذهن أي شخص يملك العقل ليتعمق هذه المشكلة هو أن الحاجة لكل النساء هي خدعة وحيلة. ولنحاول أن نرى كيف تسير اللعبة لنبدأ بـ "كازانوفا" الذي يعتبر اسمه علماً على الفحولة الجنسية.

حاك كازانوفا، الذي كان يحب أن يضفي على اسمه هالات من الألقاب الكبيرة، كان ابناً لممثل مستهتر، متزوج من ابنة "حزبجي"، وُلد في البندقية سنة ١٧٢٥. وكانت في تلك الأيام أعظم مدن العالم سحراً وتهتكاً. مات والده بعد أن أنجب ستة أطفال كان "كازانوفا" أكبرهم، وكانت الأم تعمل في المسرح أيضاً، وهكذا نشأ "كازانوفا" عملياً دون سيطرة أبوية، في رعاية جدته.

كان قبيح الخلقة، قوي البنيان، غجري البشرة، عيناه خرزيتان كالطائر، وأنفه رفيع وطويل، وفمه شهواني، وكان طويلاً جداً، أكثر من مترين في عصر كان متوسط طول الفرد فيه ١٦٠ سنتيمتراً، وكان شديد الذكاء، يسعد الناس بتعليمه. لكن المهنة الوحيدة التي كانت متوفرة لإنسان لا يملك النقود آنذاك، هي في الكنيسة، وهكذا قرر كازانوفا أن يصبح راهباً.

كان في حالة حب دائم منذ كان في العاشرة من عمره، حب برئ، فقد كان وغداً محبوباً ومرحاً.

حين كان في السادسة عشر من عمره، وقع في حب فتاة تدعى "أنجيلا"، لكنها لم تجده جذاباً. ووافقت صديقتان لها - نانيت ومارتون - أن تساعداه للفوز بها. كان من عادته أن يتعشى

عندهما، وبعد العشاء يغادر أمام الجميع ويصفق الباب وراءه، لكنه كان يتسلل من سلم خلفي إلى غرفة نوم الفتاتين حيث تلحق به الفتاتان بعد ذلك وبصحبتهما انجيلا، ويتحدثون همساً مستمتعين بارتكاب الممنوع. وفشلت فتاته يوماً في القدوم، وانتظرها طويلاً، ولم يستطع مغادرة المنزل حتى الصباح، حين فتحت عمة الشقيقتين الباب وذهبت إلى الكنيسة. وهكذا نام بين الفتاتين على السرير، وعند الصباح كان الثلاثة قد فقدوا عذريتهن.

هل هذه القصة التي رواها كازانوفا حقيقية؟ لن نعرف أبداً، لكنها تتفق مع شخصيته تماماً. لقد بدأ حياته الجنسية، لا بالنوم مع فتاة واحدة، بل مع فتاتين.

أصبح كازانوفا الآن راهباً، وأُعجب به رجل من الأغنياء، فدعاه ليقيم في منزله الكبير، وبدا أن الحياة فتحت ذراعيها له، فقد كان الرجل قوي النفوذ. لكن حدث أن وقع هذا الرجل العجوز في غرام فتاة تقيم في المنزل أيضاً، اسمها تيريزا، وذات يوم، حين ظن الاثنان أن العجوز نائم، طرأ على ذهن كازانوفا وتيريزا أن يفحصا الإختلاف بين الولد والبنت (كما روى كازانوفا بنفسه) ولكن ضربة قاسية من عصا وضعت نهاية لتساؤلهما العلمي، وطُرد كازانوفا من البيت.

لن ألخص بالطبع مذكرات كازانوفا، فهي تقع في أربعة آلاف صفحة، ويكفي أن نقول أنه أصبح، منذ ذلك الحين، نصاباً ووغداً كاملاً، بدأ بالنصب على عائلته، فباع اثاث البيت الذي تركه والده، وتدخل أحد المحامين وسجنه.

هرب كازانوفا من السجن، وبحث عن المحامي حتى وجده، فضربه وكسر له ثلاثة أسنان بالإضافة إلى أنفه وألقى به في قناة، ثم سارع بالعودة إلى السجن. وهكذا حين جاءت الشرطة لتتأكد من هروبه بناء على شكوى المحامي، كانت له حجة قوية ضد خصمه.

وحين أُفرج عنه، لم تسمح له حساسيته أن يبقى في البندقية، فغادرها.

قليل من الرحال، الذين اغتنوا وأفلسوا عدة مرات في حياتهم مثل كازانوفا، أصبح غنياً عدةمرات، وشحاذاً مرات عديدة. خدعه أحد الرهبان واستولى على كل ثروته، وراهب آخر على الدرجة نفسها من الوضاعة، علمّه فنون السرقة والقتل حتى يشق طريقه دون أن يجوع، لكن للإنصاف فإن كازانوفا لم يقتل قط.

من حسن حظه، أنه كان ذكياً جداً وله حضور كبير، وهما العدة المثالية للنصاب الجيد. فبدأ عمله بممارسة بعض الألعاب السحرية ورؤية البخت، واستطاع أن يكون مشهوراً. أحياناً يبتسم له الحظ بدرجة كبيرة، فيشتري ملابس جميلة، وعربة خاصة تحمله، وفي أوقات أخرى كان يهرب وقد وضعت الشرطة ثمناً لرأسه. ولكن سواء كان الرجل المدلل للمجتمع، أو المطارد من البوليس، فإن

الحب الأكبر في حياته كان النساء. وكان يفضل العذارى البريئـات، ومـن الصعب القـول أنـه كـان نصاباً كبيراً في الحب كما هو في أشياء أخر.

والصفحات التي يصف فيها طريقة هروبـه مـن السـجن في البندقيـة، مـن أجمـل وأكبر عمليـات الهروب في الأدب.

وأخيراً، بعد حياة طويلة من إغواء الفتيات، والتسكع والنصب في منتصف الليالي، استقر به المقام كأمين مكتبة في قلعة رجل من النبلاء.

وبرغم تمزقه وسوء مزاجه وكثرة شـكواه مـن ان الخـدم لا يعاملونـه بإحترام، فإنـه كـان يكتـب وكتب في مذكراته هائلة الحجم التي تعطينا صورة شبه كاملة عن السـلوك البشـري في القـرن الثـامن عشر. إن الأربعة آلاف صفحة التي بين أيدينا من مذكراته هي جزء ضئيل من المخطوطة التـي ضـاع أكثرها وهو يغطي خمسة وعشرين سنة من حياته.

أن أول مايلاحظه قارئ المذكرات، أن كازانوفا يعتـبر نفسـه مـن طليعـة كبـار المثقفـين بالدرجـة الأولى. وبالرغم من أنه كان أميناً تماماً في وصف عمليات النصب التـي قـام بهـا بـالتفصيل، فهـو لـم يفكر في نفسه قط بإعتباره نصاباً. وهذا هو بالتأكيد مفتاح شخصيته.

ومن يقرأ مذكراته، متوقعاً أن يرى فيهـا قصـة جنسـية مثـل "فـاني هـل"، فسيصاب بخيبـة أمـل. فالجنس يحتل جزءاً صغيراً جداً في هذه الصفحـات، حتـى الوصـف في هـذا الجزء لا يتطـرق قـط إلى التفاصيل العملية.

كذلك فإن الفصـل الـذي كتبـه عـن زيارتـه للكـاتب الفرنسـي فولتـير، يلقـي ضـوءاً آخـر علـى شخصيته. كان فولتير في ذلك الوقت، كاتباً مشهوراً في كـل أوروبـا (في هـذه الأيـام يُقـرأ أقـل مـن كازانوفا، وهي لمسة كانت ستسعد النصاب الكبير لو كان يعلمها)، وقد عانى اضطراباً كبيراً ليوضح للقارئ أنه مساوٍ لفولتير، ويعيد سرد حواره معه كلمة كلمة، خاصة الأمور التي اختلفا عليها، ويصر على أنه كان على حق فيها. وهذا يعطينا مفتاحاً آخر لشخصيته.

فهو لم يكن مهتماً بالجنس بالدرجة الأولى، وندرك ونحن نقرأ المذكـرات أن هـذا العاشق الكبير كان على استعداد أن يضحي بروحه، كي يُعتبر كاتباً كبيراً. وقد ألف مجموعة من القصـائد المنوعـة، وبضعة مسرحيات وأعمال أخرى، يذكرها بطريقة توحي للقارئ بأنها من الروائع. كان بإمكانـه أن يصبح كاتباً مهماً لو امتلك فضيلة ضبط النفس، فقد كان شـديد الذكـاء، لكـن لسـوء الحـظ، كـان متكبراً وأنانياً وضعيفاً أمام شهواته. والشئ الوحيد الذي تـاق إليـه أكـثر مـن أي شـئ آخـر، هـو أن يؤلف كتاباً واحداً يعرفه به كل قارئ، ان له بالطبع المذكرات، لكنها نشرت بعد وفاته بفترة طويلة. وليس معنى ذلك أنه التجأ الجنس لأنه لم يستطع تحقيق نفسه ككاتب، فالجنس مبهج، لكن لا يوجد

رجل يطارد النساء لينام معهن في الفراش لأنه وجد أن ممارسة الجنس لأول مرة كانت ممتعة، مثل من يأكل قطعة شيكولاته ويجدها لذيذة، فيحاول أن يأكل طناً منها.

كان كازانوفا يحب أن يراه الناس في صورة معينة: ملابس فخمة مصنوعة من نسيج موشى، منازل جميلة، عربات أنيقة وخيل، ضيف تستقبله بيوت الأغنياء بترحاب، مؤلف أغاني جميلة، ومترجم جيد، ورجل واسع الثقافة. ببساطة أراد أن يكون رجلاً عظيماً.

ينقسم الجنس البشري تقريباً إلى نوعين من البشر: ٩٥٪ منهم يعرفون أنهم ليسوا عظماء ولن يكونوا، ويقبلون موقعهم من الحياة، ويستمرون في عملهم اليومي دون أسئلة كثيرة. وبقية الخمسة بالمائة، لديهم إحساس محدد بأنهم ينبغي أن يكونوا عظماء، وقد لا يعرفون كيف يحققون ذلك، إلا أنهم ينظرون حولهم، ولا يقتنعون ببساطة أن يكونوا مثل الآخرين.

قد تبدو النسبة غير كبيرة، لكنها بالفعل كبيرة، واحد من كل عشرين فرداً، وليس معنى ذلك أنهم كلهم شكسبير أو نابليون، لكن هناك في داخل هؤلاء الناس دافع قوي للسيطرة، والرغبة في العلو في المجتمع، لكن نسبة ضئيلة منهم هي التي تحقق شهرة كبيرة، ونسبة كبيرة منهم يصبحون نقاداً وأساتذة جامعات، يقضون وقتهم يمتدحون الرجال العظام الذين ماتوا، بينما يهاجمون أية بوادر عظمة عند الأحياء.

إن ٩٥٪ من البشر راضون بالوضع الذي هم عليه بشكل أو بآخر، و٥٪ يشعرون بإحساس غامض بأن عليهم أن يكافحوا ليرتقوا بوضعهم بأي ثمن، دافع تطوري، لكن كثيراً منهم لن يحقق شيئاً ذا قيمة. قد يصبحون أكثر مرارة، موظفون مدنيون متسلطون، يستمتعون بالإستئساد أو التحكم فيمن يأتون لقضاء حاجاتهم، في الواقع، يصبحون "بلطجية" صغاراً يستحقون الرثاء. ويجب أن تكون صبوراً مع أمثالهم، فهم غير محظوظين، لديهم دافع يعذبهم على الدوام كقطعة زجاج في الحذاء، ومع ذلك تنقصهم الثقة أو القدرة لفعل شئ تجاه ذلك. إنهم أتعس البشر.

ملايين من الشباب، يجربون استخدام هذا الدافع - دافع التطور - ليخرجوا من الروتين الميت الذي يقدمه العالم إليهم، ولا يستطيعون فهم كيفية تقبل آباؤهم للحياة بهذه السهولة. وهذا هو سبب شعبية "جيمس دين" وسط الشباب، وهو الذي يجعل التواصل سريعاً بين فرق الغناء المختلفة والشباب، فهي تحمل وعداً لهم بأن الحياة ليست كئيبة كما يجدها معظم الكبار. ولسوء الحظ هي معركة خاسرة، فالرتابة والغباء هما العدوان المميتان للجميع، يخنقانك حتى تنتهي بأن تنضم إليهما تلافياً للإنهاك الكلي.

لكني لا أريد أن أكون مثيراً للإحباط، فأنا شخصياً لا أشعر به، ولو استطاع الشباب استخدام عقله، فإن الفوز سيكون سهلاً، حتى لا يقع تحت ثقل رتابة الحياة.

إن كازانوفا لا ينتمي فقط إلى نسبة الخمسة بالمائة التي تريد أن تكون عظيمة، بل ينتمي إلى الواحد بالمائة منها، المصمم أن يصل إلى القمة مهما كانت التضحيات. هناك شيء واحد كان ينقصه، هو الإيمان الحقيقي بنفسه، فالرجل الذي يملك ثقة حقيقية بالنفس، يندفع إلى الأمام، ويتقدم جانياً رأسه للعاصفة، لاعناً المعارضين، مصمماً على الفوز، لكن رجلاً مثل كازانوفا، يرغب في عائد سريع، ولديه ضعف جوهري تجاه رغباته، لا يملك هذا النوع من القوة.

إن من أفضل الطرق في العالم لرفع الثقة في النفس.. هو الجنس، خاصة إذا كنت جذاباً. إن قوة الحياة تدعمه بشدة.

قد تكون في قبضة قرف عميق، وقد تشعر أن حياتك عبارة عن فشل متواصل، وكل سعادة هي خدعة، ولكن إذا مرت بك فتاة جميلة، جذابة ومغرية، فستكون كصوت البوق لحصان حرب عجوز، وذلك سبب تقليد الرجال لعواء الذئاب أحياناً، حين يرون فتاة جميلة، أو يدقون على صدورهم كالقرود، إنهم يعبرون عن رد فعل بدائي تماماً، أعمق من الفكر أو التقاليد الإجتماعية. الجنس يجعلك تدرك أن الحياة أكثر أهمية مما كنت تعتقد، ويشعرك بالخجل أنك كنت على وشك الإستسلام. فجأة تبدو الحياة لك رائعة، ويختفي التشاؤم، وتشعر أن خطأك الأساسي هو حذرك وعدم ثقتك في الحياة، وأنه ببعض النشاط والجرأة والتفاؤل ستتخطى كل المشاكل.

كل هذا يستطيع الجنس أن يفعله، ولذا فإنه كان النصير الأكبر لرجل مثل كازانوفا، لديه الكثير من الموهبة والذكاء، ولكنه لم يستطع الوصول إلى الدرجة التي يريدها بسبب ضعف إرادته الشديد. ولو كان مكانه رجل أضعف منه وأكثر غباء لوقع ضحية الخمر أو المخدرات. ولهذا أصبح كازانوفا عاشقاً عظيماً، وفي كل مرة تستسلم له امرأة، يكون كنابليون حين ينتصر في معركة.

لقد قال "ازرا باوند" ذات مرة "ان الشعراء يشربون من الحياة، كما يشرب الرجال الضعفاء النبيذ".

وهذه هي الصورة التي كان كازانوفا يحب أن يظهر عليها، كازانوفا الزوبعة التي تدور حول العالم، تكنس النساء كأوراق الشجر، تحملهن لحظات في طيرانها المرعب، ثم تسقطهن.

يذكر، بفخر، في مذكراته، كيف أنه قابل امرأة صغيرة جميلة متزوجة في دكان "ترزي"، ووجد لدهشته أنها مازالت عذراء، فزوجها، الذي كان يكبرها كثيراً كان مريضاً. وبسرعة اكتسب ثقة الزوج وأغوى الزوجة. وندرك أن نصف متعته كانت في احساسه بخطف الثمرة من تحت أنف زوجها، وأثبت لنفسه ثانية أنه الأفضل.

لكننا نكتشف أنه أيضاً كان نصاباً في الحب كما هو في الحياة، قاومته إحدى الفتيات في مناسبة ما، واتخذت لها عشيقاً آخر، وكانت صدمة كبيرة له، وثار غضبه، لكنه لعب لعبة الإنتظار، وتظاهر، في الوقت نفسه بأنه صديقها، واثقاً أن فرصته ستحين. واكتشفت الفتاة أنها حامل، وجاءت الفرصة

للثعبان، فأكد لها أن لديه مرهماً يخلصها من هذا الحمل دون ألم، لكن لابد من وضعه في مدخل الرحم، وسألته بسذاجة: كيف ستضع "المرهم" هناك؟ فقال لاشئ أسهل من ذلك، فهو يمتلك آلة صُنعت لذلك الغرض، إذا دُهن المرهم على طرفها. وصدقته الفتاة الساذجة ونال هدفه أخيراً، واضطرت الفتاة بالطبع أن تضع طفلها في أحد الأديرة.

قصة طريفة، لكنها نموذجية تماماً في التعبير عن هذا النصاب الواثق بنفسه. كان كازانوفا وغداً وضيعاً أمام شهواته، وإذا لم تُعطه الحياة مايريد، فإنه يعمل على سرقته، والغريب أنه لم يعتبر نفسه وغداً لأنه لم يؤذ أحداً. وكل هذا الحديث عن كونه عاشقاً كبيراً مجرد هراء، فقد كان ماهراً في سرقة الحلوى من الأطفال، وكان غبياً بما فيه الكفاية - برغم ذكائه - ليقضي حياته بهذا الشكل.

وقبل استخلاص عدة نتائج، لنلق نظرة على حياة بعض هؤلاء العشاق الكبار، وسنجد أن النتيجة في النهاية هي نفسها.

فرانك هاريس مثلاً، يشبه كازانوفا بشكل غريب، برغم أن سيرته الذاتية "حياتي وغرامياتي" أكثر بقليل من ألف صفحة، بمجرد أن تبدأ بقراءتها يصدمك التشابه مع كازانوفا. فهي أبعد ماتكون عن البذاءة، برغم أنها لم تبع بشكل علني في بريطانيا حتى سنة ١٩٦٤. "هاريس" الذي ولد بعد كازانوفا بأكثر من قرن، كانت عنده الرغبة المحزنة نفسها في أن يكن رحلاً عظيماً وكاتباً مهماً.

كان فرانك هاريس ابناً لضابط بحري أيرلندي، هرب إلى أمريكا وهو في سن السادسة عشر، اشتغل مديراً لفندق، ثم راعياً للبقر، ثم محامياً، ثم عاد إلى إنجلترا وقرر أ، يصدر جريدة للفضائح في وقت كانت فيه كل الصحف محترمة حداً. وبذلك كان أحد مؤسسي الصحافة الشعبية الرخيصة التي تعطي الجمهور مايريد. واعتقد هاريس، مثل كازانوفا، أن لا موانع ولا حواجز تقف أمام الإنسان في معركته مع العالم، وهكذا كذب وابتز ونصب بقدر ماحرؤ على ذلك. وكان بعيداً عن الأمانة التامة في سرد قصة حياته، ولم يعترف بعمليات النصب التي قام بها.

ولو قرأت مذكراته، أو الترجمة التي كتبها عن صديقه الحميم أوسكار وايلد، أو كتابه عن شكسبير، ستجد أن الزبدة لا تسيح في فمه (الفولة لا تبتل في فمه).

هناك مواقف يتحدث فيها كشاعر كبير عن الحاجة إلى نوع من المثالية الراقية، ومن الواضح أنه يصدق كل كلمة يقولها.

وحين تقرأ مذكراته، تتساءل عن تلك المأساة الكبيرة التي منعت هذا الرجل من أن يكون كاتباً كبيراً، وكان سيسعد بهذا التساؤل، ولكن إذا قرأت أي كتاب عنه، فستدرك بسرعة لماذا لم يكن كاتباً كبيراً. فهومثل كازانوفا كان متكبراً أنانياً ضعيف الإرادة.

وكما قلت فإن مذكراته ليست من الأدب الجنسي المكشوف، فهي مغلفة بجو متقد من المثالية والأدب العظيم مع بعض السذاجة. فهو يقول عند ذكر بعض الإغواءات التي قام بها: "قد تُصدَم قارئاتي الصغيرات حين تعلمن أن..." فتحس أنه يرى نفسه روحاً شاعرية راقية وأن معظم الفتيات الصغيرات يقرأنه بانتباه رصين.

ولكن برغم محاولاته لإخفاء ضعفه الأساسي وعدم أمانته، إلا أننا نلحظ ذلك خلال الكتاب كله. فلقد اهتم بالجنس في سن مبكرة، في الرابعة عشر من العمر. وكان من عادته أن يمد يده فجأة ليلمس ساق أي فتاة تقترب منه، وكان من طبيعته السيئة "النتش" فهو يعتقد أنه لا يمكنه الحصول على شيء إلا إذا اختطفه على غير توقع من الآخرين. أقام على ظهر السفينة، وهو في طريقه إلى أمريكا، علاقة حب مع ابنة أحد الضباط، وسمحت ليديه أن تعبثا بجسدها بمجرد أن وعدها بالزواج. وانتهز الفرصة في نيويورك ليقضي ساعات معها في غرفة نومها، ولكنها لم تكن بعد على استعداد لمنحه جسدها، فهز كتفيه وتركها وسافر إلى شيكاغو دون أن يقول لها وداعاً، وهو أبسط مايمكن أن يفعله. رفضت أن تمارس معه الجنس، إذن فهي تستحق أن تُنبذ بلا ندم.

حديثه عن اغواءاته أكثر تفصيلاً بقليل من كازانوفا. ومن الواضح أنه يجد لذة معينة في إعادة سرد التفاصيل الدقيقة، ولكن تشعر طوال الوقت بأنه يمارس الحب بروح أنانية تماماً، بالضبط كعلاقته مع الفتاة على ظهر السفينة. وهو في هذا أسوأ من كازانوفا، فهو ليس لصاً للحب فقط، بل قاطع طريق، يحل له اعتراض كل المسافرات، وخطف عذريتهن وهن ساهيات.

يزعم في الجزء الثاني من مذكراته، أنه أحب فتاة قابلها في لندن وأراد أن يتزوجها، لكنه أصبح صحفياً مشهوراً ونسيها تماماً. وحين تقابلا ثانية، أغواها بسرعة دن ذكر لحب أو زواج، برغم زعمه بأنها واحدة من أهم النساء في حياته، ولم يشرح لنا أبداً لماذا افترقا، وعلى القارئ أن يقرأ مابين السطور، وهذا ليس أمراً صعبا، فبالنسبة إليه، "فهاريس" هو أكثر الأشخاص أهمية في العالم، وأية علاقة مع امرأة محكوم عليها أن تكون علاقة من جانب واحد فقط، وعلى المرأة أن تكون قديسة حتى لا ترى انشغال "هاريس" الكلي بذاته.

يبدو حديثي هذا وكأني أكره هاريس بدرجة أكبر من الواقع، فقد كان نذلا عجيباً، ومذكراته جيدة وكلاسيكية بطريقتها الخاصة، ولا يمكن أن نشك لحظة بأن الرجل كان عاشقا عظيماً، فقط لأنه أراد أن يكون إنساناً عظيماً، لكنه كان ضعيفاً ومتكبراً.

كل الشواهد توضّح أن العشاق الكبار كانوا فاشلين، ينقصهم احترام الذات، وقد كان باستطاعتهم ان يكتسبوا هذا الإحترام بفعل شيء ما يجعلهم عظماء حقاً، ولكن لم تكن لديهم القوة الكامنة الكافية لذلك، وهكذا أصبح الجنس طريقاً جيداً لدعم روحهم المعنوية، أفضل بكثير من زجاجة ويسكي.

هناك مثلاً، حالة هنري ميللر الغريبة، وقد مُنعت كتبه فترة من الزمن في بريطانيا وأمريكا، وهي نوع من السيرة الذاتية، يتعلق معظمها بانتصاراته الجنسية. وهو ككاتب أفضل بكثير، بالطبع، من كازانوفا وهاريس، فهو يمتلك ذهناً أصيلاً وموهبة جيدة، كما أنه يحب الفكر من أحل الفكر، وبعض أعماله غير الجنسية مثل "الكتب في حياتي" تظهره في أحسن حالاته. ولكن إذا قرأت ثلاثيته "الصلب الوردي" التي يعتبرها رائعته ووصيته العظيمة، فسيتضح لك أن هذا الرجل يعاني من نقص كبير في ثقته بنفسه واحترامه لها.

ربما يرجع ذلك، لأنه ظل أفضل قليلاً من صعلوك حتى أصبح فوق الأربعين، حين كتب أول كتبه الناجحة "مدار السرطان"، لكنك تصاب بالإحباط من حياة هذا الكازانوفا الجديد، الذي يعيش دائماً في مساكن قذرة، ويشرب القهوة مع شعراء يرتدون ثياباً رثة، ويقترض النقود دائماً.

هناك من يعتقد أن "ميللر" هو أحد أنبياء القرن العشرين، ولكنني شخصياً أرى أن مأساته أكثر أصالة من كازانوفا وهاريس، لقد اقترب بشدة من أن يكون كاتباً كبيراً، لكنه لم يستطع أن يتخلص من فشله المرعب في أن يثق بنفسه.

ونحن نتحدث عن العشاق العظام، لابد من كلمة عن "لورد بايرون" الذي يبدو على النقيض من كل ماقلته سابقاً، فمن النظرة الأولى، يبدو "بايرون" عاشقاً كبيراً وشاعراً عظيماً وعقلية قوية.

ولا يوجد شك في حماسته لممارسة الجنس، يقول صديقه "بيلودوري" "بمجرد أن يصل إلى غرفته في فندق ما، حتى ينطلق كالصاعقة على الخادمة".

ومنذ أيام دراستنا، ونحن نعتز بهذه الصورة عن العبقري الكئيب بايرون، رجل يتجول في أوروربا، ويطلق، بين حين وآخر، قصيدة حديدة، ثم ينقض كالصاعقة على أقرب فتاة جميلة.

لكن بايرون، الرجل الكامل، انحنى تحت ثقل خطيئة كبيرة لم يجرؤ على البوح بها. ولسوء الحظ فإن الباحثين في القرن العشرين استطاعوا كشف بعض الأسرار الخفية في حياة بايرون.

الخطيئة الكبيرة التي لم يجرؤ على الإعتراف بها، هي خطيئة أوسكار وايلد نفسه - الشذوذ الجنسي.

كان بايرون ابن أمه، وقدأصبح شاذاً وهو في المدرسة العامة. وحين تزوج من فتاة حذابة، سارت حياته سيراً جميلاً، لكنه أصر أن يمارس معها الجنس بالطريقة التي تعلمها بالمدرسة، فلم تمانع، لكن عند أول شجار معه، اعترفت لوالديها بممارسته الشاذة، فأصابهما الذعر وأصرا على الطلاق - راجع كتاب البروفيسور "ويلسون نايت" زواج لورد بايرون، الذي يثبت فيه أن إنهيار زواج بايرون كان بسبب أنه أراد أن يأتي زوجه من دبرها.

وغادر بايرون إنجلترا، خوفاً من تناثر الشائعات حول شذوذه، ويصيب الرعب كل الفتيات الصغيرات الرومانسيات اللواتي يشترين شعره ويعدونه كبطل.

كان ثنائي الجنس، تناسبه النساء كما يناسبه الغلمان، لكنه لا يثق في المرأة ولا يحبها كثيراً، وكل صداقاته الحقيقية وعلاقاته العاطفية مع الرجال أو الشباب، وقصته الوحيدة الحقيقية كانت مع امرأة على شاكلته، هي السيدة كارولين لامب، امرأة جميلة لكن عصابية تماماً، كانت تطارده بجنون وتلقيه على السرير حتى كان يشعر بأنه يُغتصب.

منذ ذلك الحين، كان العاشق الكبير يفضل الخادمات أونساء من طبقة إجتماعية أدنى، فهن لا يثرن أعصابه. وتحت هذا الغلاف الخارجي المتغطرس فقد كان بايرون ولداً صغيراً يتوق إلى أحد يحبه، يتأذى بسهولة، وفاسد تماماً. وهذا العاشق الكبير يبدو عن قرب رجلاً آخر تنقصه الثقة بالنفس لا يستمتع بالجنس مع النساء. ولقد مات قبل أن ينضج.

ولدينا حالة مشابهة من عقدة العاشق الكبير، في القرن العشرين، وهي حالة الكاتب هـ.ج.ويلز.، ولقد اقترب أن يكون كاتباً عظيماً، فموهبته أفضل من كل العشاق الذين عرفناهم، ولكن إذا قارناه بصديقه ومنافسه الأدبي "برناردشو"، سنرى أن شو هو الرجل العظيم بحق.

كان "ويلز" رجلاً قصيراً، له صوت "مسرسع" بلكنة خاصة لم تفارقه أبداً. سنوات حياته الأولى كانت بائسة ومحبطة، وحين تزوج ابنة عمه، وهي فتاة لا تشترك معه إلا بالقليل، كانت أول امرأة في حياته. لقد اقترب من الموت بسبب السل والإهمال، لكن لحسن حظه بدأ يشق طريقه ككاتب، وبعد زواجه بفترة قصيرة خان زوجته مع فتاة أخرى تعيش في البيت نفسه، ولقد سجل أحاسيسه بالنشوة من هذه الحادثة. ثم وقع في حب إحدى تلميذاته، وكان مدرساً للعلوم في ذلك الوقت، وهي فتاة ذكية هادئة، ومؤهلة أفضل من زوجته لفهمه. في سن الثامنة والعشرين نشر روايته "آلة الزمن"، ووصلته الشهرة بخبطة واحدة، ولم ينظر إلى الوراء أبداً. وفي سن الأربعين كان أحد الملامح القومية الإنجليزية، وكسب ثروة كبيرة.

عُرف عنه في لندن، أنه أكبر دون جوان مثابر، ربما لأنه قصير وبدين (في تلك الأيام) وصوته "مسرسع"، فأراد أن يثبت لنفسه ماكتشفه كازانوفا قبله، بأن الشكل الجميل ليس مهماً بالنسبة للنساء. كانت زوجته الثانية مخلوقاً لطيفاً، تحطم قلبها في البداية، من علاقاته المتواصلة مع النساء، ولكن كان عليه أن يثبت لنفسه شيئاً ما، وبالتالي لاشيء يهم غير ذلك. وكان عليه أن يواصل بالتأكيد لنفسه بدلائل مادية على شهرته ومجده. فأي كاتب جاد، على سبيل المثال، يتعرض لأن يعرف عدداً من الناس أكبر مما يريد معرفته، وإذا كان مشهوراً، فيمكنه أن يقضي حياته كلها في الذهاب إلى الحفلات ومقابلة أمثاله من المشهورين في عالم السياسة والسينما والأدب، ولو كان لديه

عقل فسيتعب من ذلك بسرعة، ويدرك أن الناس، حتى المحترمين والمشهورين منهم، يمكن أن يكونوا مضيعة للوقت تماماً، وبالتالي يحاول الهرب من كل ذلك، وينكب على عمله.

"ويلز" لم يستطع أن يتدبر ذلك، فالدليل المادي للنجاح عنده، هو أن يحيط نفسه بالمشاهير والنساء.

شجاراته العامة، أصبحت دليلاً على افتقاده للثقة في نفسه، فهو يستشيط غضباً بسرعة، وينفجر في شتائم هستيرية لمن يعارضه، وفي أواخر حياته أصبح حاد الطبع وحساساً جداً.

كذلك بدأ برناردشو حياته الجنسية كزير نساء، برغم - وذلك غريب جداً - انه ظل بكراً لم يمارس الجنس حتى أواخر العشرينيات من عمره حين أغوته إحدى تلميذات أمه. وحين التحق بجمعية الإحياء الإشتراكي سنة ١٨٩٠، ونشر أول كتبه، وكتب نقداً درامياً لجريدة فرانك هاريس، وجد أن من السهل إقامة علاقات حب مع النساء، فكانت له سلسلة من المغامرات ذكر بعضها بالتفصيل "هيسكيت بيرسون" في كتابه عن حياة شو.

ولكن بمجرد أن بدأت شهرته في أوائل سنة ١٩٠٠، تزوج من وريثة إيرلندية واستقر سعيداً في حياته. وأصبح في السنوات العشر التالية أكبر كاتب مسرحي في أوروبا، كان يقيم أحياناً علاقة رومانسية مع إحدى السيدات الشهيرات، مثل مسز بات كامبل، لكن الأمر لا ينتهي قط في السرير، فلم يكن لديه الدافع للوصول إلى تلك النتيجة. أطلق عليه أعداؤه أنه سمكة باردة، واتهمه فرانك هاريس بالعجز الجنسي، لكن الأمر لم يكن كذلك، فقد أثبت لنفسه أنه يستطيع الحصول على أي عدد من النساء الجميلات كأي شخص آخر، ولذلك كان يتجه إلى فعل شيء آخر. ولقد قيل أن زواجه لم يكتمل أبداً؛ لأن زوجته تكره الجنس، وهذا ليس مؤكداً، ولكن إذا كان حقيقياً، فمن المدهش أنه لم يستغل شهرته لإتخاذ عشيقات. لقد كان لديه بالفعل، احتشام ايرلندي ما حول الفعل الجنسي والحديث عنه - وهو هنا عكس ويلز تماماً - ربما لم يكن مخلصاً لزوجته طوال حياته - وهناك مثلاً حكاية غريبة تقول أنه تبع مسز كامبل إلى الشاطئ يوماً وصدته، لكن هذا خارج الموضوع - لم يكن برنارد شو دون حواناً؛ لأنه وجد أن في الحياة أموراً كثيرة مهمة غير الجنس.

* * *

قد يجد الشباب الصغير هذا الموضوع صعباً على الفهم، وقد يفضلون ويلز وهاريس على برناردوشو، ولكنني أقول من تجربتي، أني أفضل الإنحياز إلى شو، وأتطلع إلى اليوم السعيد - الذي تنبأ به - حين ينصرف كبار السن عن الجنس تماماً. ولا يبدو هذا أملا مستحيلاً كما كان يبدو منذ عشرين عاماً مثلاً.

الهدف من كل هذا الحديث عن العشاق الكبار، هو القول بأن غريزة المرأة تتركز حول الجنس أكثر من الرجل، فالمرأة هي التي تحمل بالأطفال، ومشكلتها هي اختيار الرجل الذي يمنحها أجمل

الأطفال وأكثرهم صحة. وقد تفضل الوغد أو المتشرد على الرجل الذي يقدم لها الأمان، لأن غريزتها تخبرها بأنه الرجل المناسب.

ولكن إذا كان لدى الرجل إحساس بكيانه، فإن غريزته تتركز على العظمة، وآنذاك تحركه إرادة قوة غامضة يصعب فهمها تماماً. ولأن المرأة قد تعطيه لحظات رؤية مدهشة، خاصة إذا كان صغيراً وخجولاً ولا يملك الكثير من الغرور، فإن فتاة جذابة تقع في غرامه، وعلى استعداد لخلع ملابسها لتثبت له ذلك، تعطيه دفعة رائعة للأمام، وتثيره للقيام بجهد أكبر، إنها كومضة البرق تكشف له فجأة منظراً كاملاً. إن فتاة جذابة تجعل دماء الشباب تغني، فهي أشبه بمدينة مسوّرة يتطلع إليها بشوق، ويعرف أن الصعاب تواجهه إذا أراد امتلاكها، لكن حين تستسلم له يحدث كشف يشبه وميض القنبلة الذرية.

الكاتب الأمريكي جيمس دروت، كتب رواية ممتازة اسمها "العدو" (ترجمها صنع الله إبراهيم إلى العربية وصدرت عن دار الثقافة الجديدة. هـ.م.)، عن مهندس شاب عزم على أن يقوم بثورة في مهنته - الهندسة - وهناك فقرة تعبر عن الرعدة الرومانسية الأصيلة لإعجابه بفتاة:

"كانت دائماً غريبة بالنسبة لي. حين كنا نمارس الحب، ونستمتع بالقبل واحتكاك الجسدين، تحت قنطرة أو على شاطئ معشب لمجرى مياه، أو في سيارة والدي، في أمسيات يوم الجمعة، لم يكن هناك خجل أو خوف، وكلما فكرت في الأمر، وكان ذلك نادراً، أعترف بأني كنت الطرف الذي يتوقف قبل النشوة بقليل. إذا قبلتها تقبلني، وإذا دعكت ثدييها المدورين، حتى من تحت حمّالة الصدر، كانت تقوّس ظهرها، ضاغطة ثديها كله في يدي، وتقبلني مرات ومرات، وما أن أنزلق بيدي تحت فستانها، حتى تقبلني بعمق، وتفتح ساقيها لتأخذ يدي حريتها..".

هذا هو في الواقع مايجب أن يكون عليه الجنس في أحسن حالاته، لا مداعبات مختلسة في الظلام، يكون فيها الرجل والمرأة عدوين بعد الإنتهاء، ولكن اتحاد من الثقة، لا يجعل من استسلام الفتاة فرصة يستفيد منها الرجل، بل دافع يستثير إرادة القوة لديه تدفعه للكفاح من أجل العظمة.

الفصل الرابع

تناقضات الدافـــع الجنـــسى

حاولت في هذا الكتاب، أن ألتزم بالحقائق عن الجنس، وتجنبت التعبير عن نظريتي الخاصة، فالحقائق عن الجسد الإنساني وعن الدور الذي لعبه الجنس في التاريخ - تتحدث عن نفسها.

ومن السهل، أن نتعلم الجانب الجسدي من الجنس، ولكننا سنكتشف أن هذه هي البداية فقط، وأن الجانب الآخر من الجنس - الجانب العقلي - أكثر عمقاً وتعقيداً حتى أننا نجهل معظمه.

إن الرغبة الجنسية هي أحد أكثر الحوافز أهمية في التجارب التي يخوضها الإنسان - خاصة الرجل. ومع ذلك، بالمقارنة، فإن الفعل الجنسي نفسه مُخيب للآمال. لماذا؟!

إذا استطعنا إجابة هذا السؤال، فقد وضعنا أيدينا على مفتاح أسرار الوجود الإنساني نفسه وليس سر الجنس وحده.

هناك قصة قصيرة للكاتب الفرنسي جي. دي. موباسان تسمى "المجهول" تعطينا نقطة بداية جيدة.

بطلها، شاب يعيش في المدينة، يرى فتاة صغيرة في الشارع فتجذبه بشدة. لم تكن جميلة جداً، لكن كان شعرها أسود، وجسمها متماسك، وتمشي بزهو واختيال. تبعها حتى ركبت عربة واختفت عن بصره. بعد عدة شهور قابلها ثانية في الشارع، فأثارت فيه الرغبة العنيفة السابقة في أن يمتلكها. وفقدها مرة ثانية، ثم ذات صباح اصطدم بها فجأة في الشارع، فانتهز الفرصة ليتحدث إليها، وزلق لسانه بإعجابه بها. ولدهشته تقبلت الأمر بهدوء ووعدته بأن تأتي لزيارته في صباح الأحد التالي.

ووصلت في الموعد، فحاول أن يخلع عنها ملابسها على الفور، لكنها قالت: أدر وجهك حتى أخلع ملابسي، لكنه ألقى نظرة من وراء كتفه عليها، فرأى علامة سوداء بين كتفيها - كتلة صغيرة من الشعر، ففقد على الفور رغبته فيها. يقول: "حين حاولت أن أغني أغنية الحب، لم يكن لدّي صوت.. أدنى صوت". وعلقت الفتاة المجروحة "لا أحد سبباً لوضعي في هذا الموقف المحرج" وغادرته.

حين قابلها في الشارع بعد ذلك، تجاهلت تحيته، وشعر بالرغبة فيها كما حدث في السابق، لكن بالطبع لن تتاح له فرصة أخرى.

وهكذا تنتهي القصة.

مامعنى هذه القصة؟ ولماذا فشل حين حاول ممارسة الجنس معها؟ يجب أن نلاحظ أولاً أن رغبته فيها كانت رغبة جسدية محضة، بمعنى رغبته في امتلاكها حتى لو كانت بلهاء أو نشالة. فشخصيتها لم تكن تهمه، إنها شهوة خالصة.

حين تحدث معها، كان يأمل أن تعطيه عنوانها حتى يزورها، وستكون هذه أول خطوة في النصر، لكنها عرضت أن تزوره، وهكذا تلقى الصدمة الأولى. حتى هذه اللحظة لم تكن بعد، شخصية حقيقية تماماً، هي أكثر قليلاً من صورة يمكن أن يتخيلها ليمارس عليها العادة السرية. وعرضها في أن تزوره وجّه لكمة لتخيلاته. كان مرتبكاً قليلاً في الوقت الذي وصلت فيه، وكانت كتلة الشعر الأسود بين كتفيها هي القشة الأخيرة. إنها شئ صدمه ولم يكن يتوقعه. لا يهم لماذا صدمته كتلة الشعر (هو يقول إنه تذكر فجأة أن المرأة الشيطانة والساحرات في ألف ليلة وليلة هن اللواتي لهن كتل من الشعر الأسود بين أكتافهن) فقد يكون أي شئ بالطبع هو الذي ثقب فقاعة رغبته.

مثل آخر قد يوضح تماماً ماأريد قوله. في رواية "بل هوبكنز" المقدس والمدنس، يروي المؤلف قصة رجل وضعته الظروف في بيت واحد مع امرأة نائمة. ويقرر أن يغتصب المرأة. رغبته في امتلاكها ليست رغبة جسدية محضة، فهو يريد أن يسيطر عليها، فهو يحب السيطرة على الآخرين، وقد سبق أن حاول معها فرفضت الإستسلام له. يذهب إلى غرفتها، وحين يرى ملابسها على الكرسي تزداد رغبته، وتستيقظ، وحين تراه تقذف بأغطية السرير بعيداً، وتكشف جسدها العاري وتدعوه إليها.

وشعر في الحال أن رغبته قد تراجعت، وأدرك أنها قد كسبت ثانية. هناك شئ صريح وواضح في عريها دمّر رغبته.

قد نفسر قصة موباسان بأن الرجل قد شعر بخوف منبعه الخرافة عد رؤيته كتلة الشعر بين كتفي المرأة، ولكن هذا لا ينطبق على قصة "المقدس والمدنس"، فليس هناك مايخيف في جسد المرأة العادي، إذن مالذي جعل رغبة الرجل تتراجع؟.

التفسير أعمق بكثير من مجرد ممارسة الجنس، إنه شئ جوهري في تجربتنا كبشر.

صورة أخرى قد توضح الأمر أكثر، وهذه المرة قصة من الكتاب المقدس. في الكتاب الثاني لصمويل يحدثنا عن إغتصاب "أمنون" لأخته "ثامار"، كان أمنون ابن الملك داود حزيناً حتى أنه مرض لرغبته في أخته العذراء، وفكر صديقه "يوناداب" بحيلة يُحضر فيها الأخت لأخيها. فتظاهر أمنون بالمرض وأرسل في طلب أخته كي تأتي لتُمرّضه، حين جاءت، أمسك بها وطلب منها الصعود على السرير والنوم معه، اعترضت، لكنه كان الأقوى فتغلب عليها.

ثم يأتي الجزء الذي يعنينا "وكرهها أمنون جداً، وكانت كراهيته أكثر من حبه لها، واحتجت الفتاة قائلة أن هذه المعاملة السيئة أسوأ من الإغتصاب. وبلا سبب أمر أمنون الخدم بإلقائها في الخارج وإغلاق الباب وراءها".

لم يفسر العهد القديم لماذا كره أمنون أخته فجأة، وبلاشك أن مولف كتاب صمويل افترض أن قراءه سيفهمون دون شرح، وقد كان على حق.

هذا هو الجنس: رغبة جامحة لا نستطيع فهمها، ولا نستطيع عصيانها، ثم ينتهي الأمر وكأننا نستيقظ من حلم. وحين تسيطر علينا، يبدو كل شئ آخر غير مهم، فأمنون على استعداد أن يخاطر بنيل عقوبة شديدة من أبيه لإشباع هذه الرغبة، فهي ليست رغبة عابرة، بل هي مستحوذة عليه، حتى أنه يُسِرُّ بها إلى صديقه "يوناداب" ويجعله يغامر بإحضار أخته إلى غرفة نومه. حتى هذه المرحلة كان محملاً برغبة كالإعصار، ثم يبدو أنه استيقظ ليجد نفسه في السرير مع أخته، وتداعت النتائج عليه، فليس هناك مشاعر شخصية تجاهها، وربما لم يحبها كإنسانة فشعر بخيبة أمل، وبخيانة، بمعنى أنها هي التي خانته، ولذا ألقاها في الخارج.

نلاحظ الآن أن الأمثلة الثلاثة التي ذكرتها، تشترك في شئ واحد: لا توجد أية مشاعر شخصية تجاه المرأة، فقط رغبة في امتلاك جسدها.

لو كان أمنون مغرماً بثامار كرغبته في امتلاك جسدها، لسارت الأمور بشكل آخر، والأمر صحيح أيضاً بالنسبة لبطل موباسان أو هوبكنز.

العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة خليط من عنصرين: رغبة جسدية محضة، وتعلق شخصي، وقد يوجد أحدهما دون الآخر، ولا توجد علاقة ضرورية بينهما. ولقد قيل أيضاً أن التعلق أو الميل الشخصي قد يفسد الرغبة، والسبب واضح، فعلى المستوى الجنسي، أي امرأة تناسب أي رجل، ولكن نادراً مايكون هناك حب وتفاهم حقيقي بين كل منهما.

معظم الزيجات، خاصة بين الشباب، تبدأ برغبة جسدية محضة، يرى الشاب فتاة جميلة، فلا يوجد آنذاك أكثر أهمية من أن تعطيه جسدها، وقد لا يكون بينهما أي شئ مشترك.

وبعد أسبوعين من شهر العسل، يشعر أنه قد ضُحك عليه، في الواقع ينتابه شعور كالذي انتاب أمنون بالنسبة لتامار، ومن المحتم أن تنتهي نسبة كبيرة من زيجات الشباب بالطلاق.

تقل حدة الجنس،ويصبح مخففاً عند معظم البشر بسبب عنصر العلاقة الشخصية. وليس معنى ذلك أن على البشر أن يتصرفوا كالكلاب، ولكن هناك حقيقة في هذه الأبيات الشعرية التي استشهد بها ايان فلمنج ذات مرة:

بعض الحب نار

وبعضه تراب

لكن أفضل أنواع الحب

هو الشهوة.

هناك بالطبع، جانب آخر للمسألة، فكل من الرجل والمرأة يريد الأمن العاطفي، والحياة العائلية قائمة على هذا الأمن، ولذا استمرت. وحين ندرك ذلك، فإننا قد نفهم دوافع الماركيز دي ساد مثلاً أو الشاويش برتراند. فهذان الرجلان أرادا جنساً محضاً، أرادا أن يشربا الويسكي دون ماء. في حالة "دي ساد" فقد كان فاسداً تماماً، وشخصية غير ناضجة، وكان غارقاً في ذاته ولا يحتاج علاقة شخصية مع أحد. وقد يقول قائل إن معظم البشر فاسدون وغير ناضجين،لكنهم يحتاجون إلى علاقة مع شخص ما، لذا فإن كثيراً من ممارساتهم الجنسية تظل مخففة، في معظم الحالات يكون هناك ماء أكثر من الويسكي حتى أنه يبدو بلا طعم.

لنعد إلى قصة اغتصاب تامار. يتضح لنا من القصة أن أمنون شخصيتان مختلفتان في جسد واحد.

الكاتب "الدوس هكسلي" كتب قصة طريفة اسمها "التاريخ الساحر لريتشارد جريناو" يتحول فيها شاب إلى كاتبة روائية في الليل، ويكتب روايات عاطفية متدفقة، بينما في النهار هو شاب مثقف ضيق الأفق. طبعاً هذا غير معقول، لكنه يشير إلى حقيقة أساسية في معظم البشر، وهذه الحقيقة يمكن رؤيتها بوضوح في مسألة الجنس. في داخلنا شخص خجول حذر يحب الأمن، وشخص مندفع ساخن

الرأس يتوق إلى الأحاسيس القوية، والجنس ميدانه الرأس الساخن، ولا يوجد نشاط إنساني يجعلنا نعي أن بداخلنا شخصين سوى الجنس.

وإلى درجة ما، كلنا ريتشارد حريناو. نصف الوقت يستحوذ علينا موظف البنك الحريص، والنصف الآخر سائق سباق السيارات المندفع. وهذا حقيقي ليس في الجنس فقط، بل في كل شيء نفعله.

معظم فترات حياتنا ضحلة ومملة مملوءة بالروتين، ونتقبلها كأمر مفروغ منه، ثم تأتي لحظات يبدو فيها أننا نستطيع تغيير كل شيء لو امتلكنا الشجاعة والتصميم. في هذه اللحظات، هناك موظف البنك الحريص يصرخ في أذن، وسائق السباق المندفع يصرخ في الأذن الأخرى، ومن الصعب أن نختار بينهما. سائق السباق يقول "غامر"، وموظف البنك يقول "لا تغامر فمن المحتمل أن تخسر".

ومعظم حياتنا هي قصة الهزيمة التدريجية لسائق السباق.

كل طفل يريد حياة مثيرة، كل ولد يريد أن يكون طياراً أو ضابطاً، كل بنت تفكر في أن تصبح مضيفة جوية أو طبيبة، ويتصاعد الصراع في سنوات العشرينيات، لكن العالم لا يقدم فرصة كبيرة للمغامرة، وجنوح الأحداث إحدى نتائج ذلك.

منذ مائة عام، كان الولد يستطيع أن يهرب للعمل في البحر، واليوم أفضل مايمكن أن يفعله أن يغامر بسرقة سيارة أو القتال مع عصابة منافسة لعصابته.

في سن العشرين يصل معظم الناس إلى قناعة بأن موظف البنك الحريص هو الذي على حق، فيصبحون مواطنين طيبين وأرباب عائلات، ويختفي سائق السباق المغامر، أو على الأقل يصبح ظهوره أقل، سائق السباق هو الخاسر، والمجتمع هو الكاسب.

لكن هل هذا صحيح في كليته؟

إذن كيف وصلت حضارتنا إلى مستواها الحالي؟!.

يعود الفضل إلى رجال رفضوا أن يجعلوا من سائق السباق هو الخاسر، المستكشفون، متسلقوا الجبال، الرواد في كل المجالات، وآخرون كرهوا الطريقة التي يدار بها المجتمع، فأصبحوا متمردين وثواراً.

بدون هؤلاء المتمردين، لم نكن لنتقدم، ولظل الأطفال يعملون في المصانع، وأمريكا يحكمها ملك، وروسيا مازالت تحت حكم القياصرة، إن سائق السباق هو أثمن جزء فينا، وتدميره يعني تدمير الحضارة.

وإلى جانب هؤلاء المغامرين والمستكشفين، هناك نوع آخر من البشر ليسوا على استعداد أيضاً للإستسلام إلى موظف البنك الحريص، وأعني بهم المثقفين: العلماء والشعراء والكتاب والموسيقيون والفنانون، فكل منهم مدفوع بالدافع نفسه الذي لدى المستكشف أو متسلق الجبال.

هناك رحال لا يقبلون الحالة العادية للحياة اليومية برعبها وتكرارها. كان المستكشف يحلم ببحيرات مجهولة وغابات بكر في مجاهل إفريقيا، والآن في عصر الفضاء ربما يحلم بها على كوكب المريخ أو الزهرة.

العالم أو الشاعر أو الكاتب يحلم باستكشاف مناطق جديدة في العقل والخيال. هذا هو الدافع الكبير وراء كل علم وفن، الحاجة للهروب من ملل الحياة اليومية، بغبائها ومشاكلها، ولإيجاد مكثف أو مقوٍ أكثر تنظيماً للعقل.

أود هنا أن أقحم قليلاً من سيرتي الذاتية، وأحاول أن أكون موجزاً: كان تدريبي الخاص كعالم، ومازلت أذكر بوضوح شعور الإشباع الذي كان ينتابني عند قراءة الكتب العلمية وأنا في سن الحادية عشر أو الثانية عشر، شعور الهروب من فوضى وعواطف عالم الطفولة بكل مللـه وحقـده وشعوره بالذنب. في سن الحادية عشر تركت المدرسة وعملت في عمل أكرهه، وكانت النتيجة أني فقدت الإهتمام بالعلم وتحولت إلى الأدب والموسيقى للهروب من الشعور بالعبث.

وفي تلك الفترة استعرت كلمة "اللامنتمي" من "برنارد شو" لأصف من يجدون أنفسهم في مثل هذا الموقف من رفض ملل الحياة اليومية، ومع ذلك ليس لديهم فكرة محددة عما يريدون.

جميعنا نرغب في التوافق مع المجتمع، لأننا جميعاً نحتاج معنى ودرجة معينة من الأمان، لكن أحيانا ينتج عن محاولة التوافق إحساس حاد بالقلق، خاصة إذا عمل المرء في عمل لا يناسبه، فلا يبق هناك سوى رفض الأمان والبحث عن شيء آخر أكثر إشباعاً. ومن الواضح أن اللامنتمي قد يكون أي شخصٍ منا، قد يكون شخصاً بمزاج مستكشف، ويجد نفسه يعمل في بنك، أو بمزاج ممثل أو مغني، ويضطر للعمل في عمل يدوي، قد يكون أي نموذج يعمل في مكان غير مناسب. لكن جميع اللامنتمين يشتركون في شيء واحد، أن عنصر سائق السباق المغامر قد كُبت لديهم وأُحبط، ويحاول أن يتحرر.

حين كنت في الثالثة والعشرين، كتبت كتاب "اللامنتمي"، ولقد دهشت حين اكتشفت عدد الذين يعتبرون أنفسهم "لامنتمين".

بعد طباعة الكتاب بأشهر، بدأت أتسلم عشرات الرسائل كل أسبوع، كلها تبدأ: عزيزي السيد ولسون.. أنا لامنتم و....

من الواضح أن نجاح الكتاب يرجع إلى أن كثيراً من الناس في المجتمع المعاصر يشعرون بأنهم المنتمون.

وأميل إلى تقسيم اللامنتمين إلى ثلاثة أنواع:

اللامنتمي الجسدي، واللامنتمي العاطفي، واللامنتمي المثقف. وكلهم يشتركون في الحاجة لرفض ملل واقع الحياة اليومية.

اللامنتمي المثقف يميل إلى الهروب إلى عالم الفلسفة أو العلم.

واللامنتمي العاطفي يميل إلى عالم الأدب والفن والشعر.

واللامنتمي الجسدي يهرب إلى المغامرة أو أي شيء يتطلب مهارة جسدية أو شجاعة.

وأعتقد أن معظم الجانحين من الأحداث يمكن تصنيفهم في هذه الفئة الأخيرة.

ولابد أن أعترف أنني أكثر إهتماماً باللامنتمي المثقف والعاطفي.

ولو كانت لدى المجتمع شجاعة وخيال أكبر لوجد حلاً لمسألة اللامنتمي الجسدي الذي نسميه الحدث الجانح. إنهم يريدون الإثارة والخطر، وليس صعباً أن نزودهم بها. لقد اقترح الكاتب الأمريكي "نورمان ميلر" مرة، أنه لابد من بناء صهاريج أسمنتية ضخمة في المدن، حيث يمكن للشباب أن يمارس الغطس، مع قليل من سمك القرش لإضافة عنصر الخطر، لقد كان على صواب (في النرويج حيث كل فرد يستطيع الذهاب للتزلج في الجبال كل شتاء، لا يوجد، تقريباً شباب جانحون). لو أنفقت حكومات العالم جزءاً صغيراً جداً من ميزانية التسلح لإقامة مثل هذه "المخارج" للشباب، فلن تكون هناك مشكلة شباب جانح.

لكن مشكلة اللامنتمي المثقف أو العاطفي أكثر صعوبة، فالرحل الذي يخرج ليستكشف أواسط إفريقيا يتخلص من مشكلته عملياً، والعالم الذي يبدأ في اكتشاف الذرة يضع لنفسه مشاكل اعمق، العمل هو مكافأته، وينتهي طبيعياً بالتعب الجسدي والنوم، لكن التفكير لا يتوقف، بل يستمر.

ولأوضح أكثر: كل اللامنتمين يُطلب منهم أن يختاروا بين موظف البنك الحريص وسائق السباق المغامر. ان اختيار اللامنتمي الجسدي لا يتعدّى ذلك، لكن بالنسبة للامنتمي العاطفي أو المثقف فإن اختياره يقوده إلى مسائل أكبر، إن عليه أن يواصل أبعد وأعمق. ليس كافياً أن يختار، إنه يريد أن يعرف لماذا يختار هذا أو ذاك؟.

قصة إغتصاب "تامار" توضح أن "أمنون" كان شاباً بلا عقل. لو كان لديه عقل لتساءل: هل جننت؟ من نصف ساعة كنت أرغب فيها أكثر من أي شيء في العالم، والآن أحدني أكرهها، فماهي الحقيقة؟ مشاعري آنذاك أم مشاعري الآن؟ هل كنت أعاني من الوهم، أم أنني أعاني منه الآن؟.

هناك تفسير واحد لمشكلة الجنس: إنه مبني على الأوهام. الأوهام نفسها التي كانت تسببها "سارينات" هومر بأغنياتهن التي تقود إلى الموت، أو بوق الزمّار الذي يقود الأطفال إلى الموت: هل الجنس نوع من التنويم المغناطيسي؟.

هناك قصة "لمارك توين" هي توم سوير، يؤمر فيها توم أن ينظف السور تماماً عقاباً له، وجاء صبي يراقبه وهو يعمل، بدأ توم يصفّر ويظهر سعادته بالعمل، فطلب منه الصبي أن يأخذ دوراً في التنظيف،

فرفض توم، وعرض الولد أن يعطيه بعض بنانير (بلي) اللعب، فتظاهر بالموافقة رغماً عنــه، وفي الحـال تجمعت مجموعة من الأولاد، كل ينتظر دوره في عملية التنظيف.

ويفسر مارك توين ذلك بقوله "العمل هو مايجب على المـرء أن يفعلـه، واللهـو هـو مـالا يجـب أن يفعله. ولقد استطاع توم أن يوهم رفاقه أن العمل هو لعــب". هـل الدافـع الجنسـي يوهمنـا بالطريقـة نفسها، يعطينا المتعة ليصل إلى العمل الصعب وهو الإنجاب وتربية الأطفال؟.

وهذا هو نوع التساؤل الذي يحدث عند المثقف اللامنتمي، هو غـير قـانع بالإختيـار بـين موظـف البنك وسائق السباق، إنه يريد أن يعرف لماذا؟ يريد أن يعرف ماترمي إليه الحياة؟ وهل سيكون أفضل بإختيار هذا أو ذاك؟.

لأضرب مثلاً أوضح فيه طبيعة هذا الإختيار.

خاض الفيلسوف نيتشة تجربتين غير عاديتين، أثرتا على مجرى حياته وفلسفته بعمق. الأولى وقعت له وهو تلميذ بصحة عليلة. يصفها في رسالة له بقوله "بالأمس كانت هناك عاصفـة مقبضـة معلقـة في السماء، فأسرعت إلى تلة قريبة، على قمة التل رأيت كوخاً بداخله رجل يقتل ولدين بينما ابنه يراقبه. وانفجرت العاصفـة بفرقعـة هائلـة مـن الرعـد والـبرق، فانتـابني إحسـاس لا يمكـن وصفـه مـن اللـذة والحيوية. البرق والعاصفة عالمان مختلفان، قوى منطلقة بـلا أخلاقيـات، إرادة خالصـة دون اضطـراب المثقف – ياللسعادة ياللحرية".

وحدثت له التجربة الثانية بعد خمس سنوات أثناء الحـرب البروسـية سـنة ١٨٧٠، حـين كـان في الثانية والعشرين من العمر، يعمل مع وحدة إسعاف. لقــد أمرضـه سـفك الدمـاء والبـؤس، وضعفـت صحته مرة ثانية، وذات مساء، بعد يوم شاق مع الجرحـى، كـان يسـير قـرب "ستراسـبورج"، يشـعر بالإرهاق والضيق، وفجأة سمع صوت خطوات خلفه، ووقع أقدام جنود مشاة. وبينما هـو واقـف في ظل حائط، عرف في الجنود وحدته القديمـة ذاهبـة إلى الميـدان. منظـر هـؤلاء الجنـود، يسـيرون بهـذه السعادة والثقة نحو المعركة – ومن المحتمل نحو الموت – أعطاه ثانية احساساً فائقاً بالسعادة والحيوية. كتب في رسالة أنه اتضح له فجأة "أن أقوى وأسمى إرادة للحياة ليست في الكفاح الهزيل للبقاء حياً بأي ثمن، ولكن في إرادة الحرب. إرادة القوة".

ماحدث لنيتشة أن اتضحت له فجأة رؤية ساطعة للإختيار بين موظف البنك وسائق السباق، بين الكفاح التافه للبقاء على قيد الحياة مهما كان الثمن، وبين إرادة القوة.

في "اللامنتمي" استخدمت تجارب نيتشه هذه، وتجارب مشابهة لعباقرة آخرين، كنقطة بداية. فهم قد جعلوا السؤال الأساسي واضحاً جداً. كل شئ عظيـم حققـه البشـر بُنـيَ علـى التفـاؤل، بالإيمـان بسائق السباق لا بموظف البنك الحريص.

لكن إذا كان الرجال العظام على حق في تفاؤلهم، فمعنى هذا أن معظم البشر قد ضيعوا حياتهم سدى. فالإنسان العادي حين تنتابه هذه اللحظات من القوة والإثارة، ينتابه التفكير بأن الإنسان ليس هو الدودة التي ظن أنه يشبهها. وسرعان ما تخبو الإثارة ويعود إلى واقع الحياة اليومية مؤثراً السلامة. لكن قلة من الرجال رفضت أن تقبل ضحالة واقع الحياة اليومية، وحققت كل ماحققه الإنسان حتى الآن.

إنها ليست مشكلة سهلة، لقد قضى نيتشة حياته كلها في محاولة لفهم رؤية على قمة تل، ولكنه فشل ومات مجنوناً. الشيء نفسه يمكن قوله عن "فان جوخ"، اللامنتمي صاحب الأوهام.

حين ننظر إلى القرن التاسع عشر، وإلى القائمة الطويلة من العباقرة الذين ماتوا مجانين، أو انتحروا، أو ماتوا بالسل، ينتاب المرء إغراء قوي بأن من الأفضل له ألا يتدخل في هذه المشاكل.

شخصياً لا أعتقد بذلك، وليس هذا هو المكان الذي أشرح فيه السبب.

وحديثي عن اللامنتمين كان ضرورياً لفهم الدافع الجنسي للإنسان.

قد لا يكون لمعظمنا تجارب كرؤية نيتشة على قمة التل، لكن لدينا تجارب مشابهة، لحظات من الثقة واليقين الهائل تمر بنا، وحين تتلاشى، نجد أنفسنا نتساءل هل كان ذلك نوعاً من الوهم؟ أو أن هذا الملل المزعج لواقع الحياة اليومية هو الوهم؟.

كثير من الناس يعتقدون أنهم يستطيعون فهم سر الكون حين يسكرون، ولكن حين يستيقظون في صباح اليوم التالي لم يكن لديهم إلا آثار السكر.

وقد جرّب الأطباء، بالطريقة نفسها، تأثير الكحول على سائقي الحافلات، واكتشفوا بأن الكحول يُعطيهم مزيداً من الثقة، لكن يجعل كفاءاتهم أقل، بعد عدة كؤوس من الويسكي، فإن السائق على استعداد أن يسوق حافلة في شارع أقل من عرضها.

الرغبة الجنسية القوية، تعطينا الإحساس بأننا نُساق بقوة أكبر مما لدينا في العادة، فهي تحركنا بالطريقة التي يثير بها صوت البوق فرس الحرب، وتتيح لنا إحساساً مشابهاً لرؤية نيتشة على قمة التل.

ولسوء الحظ، فإن نتائج طاعة نداء هذا البوق، تؤدي غالباً، إلى كارثة، خاصة للشباب غير المجرب.

إن لذة الفعل الجنسي، التي قد تستمر لمدة ربع ساعة، قد تقود إلى تسعة أشهر من الإزعاج للفتاة، أو إلى إزعاج طوال الحياة لكليهما.

في كثير من البلدان الفقيرة في العالم، يبدو الجنس هو اللذة الوحيدة التي تتيحها الحياة – حتى تتحول إلى واحدة من أكثر المتع كلفة.

الوحيدون الذين لا ينتابهم الشعور بالخوف من الجنس هم الأغنياء الذين يستطيعون تربية أي عدد من الأطفال، بعد أن حوّل الإنفجار السكاني العالم إلى أحياء فقيرة مزدحمة، وأصبحنا نشك فيما إذا

كان الجنس هو أحد التجارب العظيمة التي يمارسها الإنسان، أو أنه حيلة دنيئة تغري الفئران للغوص في النهر.

حين يأخذ الرجل فتاة بين ذراعيه، فإنه يكبت النصف الذي يهمس له بداخله "احذر... إنها عملية نصب" (والشيء نفسه بالطبع بالنسبة للفتاة التي ستخسر أكثر)، ان النصفين يتصارعان بضراوة داخلهما، ويغدو الصراع أشرس إذا كانت رغبته جسدية محضة.

أما إذا كان الرجل يعرف المرأة ويثق كل منهما بالآخر، فإن مشاعر الشك تتضاءل.

وربما هذا هو السبب الذي جعل بطل موباسان يفشل في أن يغني أغنية حبه حين رأى كتلة الشعر على ظهر الفتاة، فخصلة الشعر لا ذنب لها، لكن الصدمة المفاجئة لرؤية شئ غير متوقع تجعل أحد المصارعين يُرخي قبضته للحظات، ليستفيد الآخر من ذلك على الفور. ان عدم ثقته تمسك بتلابيبه وتتلاشى رغبته كما يخرج الهواء من عجلة مثقوبة.

والشئ نفسه، حدث في حالة بطل هوبكنز الذي اعتزم اغتصاب الفتاة في فراشها. لقد هيأ نفسه لهذا الإغتصاب، بأن ترك لخياله العنان، فإن تكون الفتاة سلبية وعاجزة تجاه قوته، هو أحد الأركان الأساسية في عملية الإغتصاب. وحين ألقت الفتاة بأغطية السرير، وسمحت له بأن يراها عارية، فلقد ثقبت بذلك فقاعة خياله، ولم تعد سلبية، إنها تتحداه، فأخلّت بتوازن القوى بين المصارعين داخله، فانتفت رغبته.

كل هذا يلقي بضوء عميق حول الجنس، بل حول أمور تتخطى الجنس لتشمل السلوك الإنساني كله.

لنأخذ مثلاً، حالة كلاسيكية من عدم التوافق الجنسي، هي حالة القاتل الجنسي "ريجنالد كريستي"، فقد كان رجلاً خجولاً عصابياً في الخامسة والخمسين من العمر عند اعتقاله، وقد قتَلَ في بيته الحقير في "نوتنج هل" ست نساء على الأقل بمن فيهن زوجته. ومعظم ضحاياه كن من العاهرات، وهنا يثور سؤال: لماذا كان يجب عليه أن يقتلهن؟.

من الواضح أنه كان يخاف النساء، ولا يستطيع امتلاكهن إلا إذا كن غير واعيات. وتشير الشواهد أنه كان يدعو النساء إلى بيته، ثم يسكرهن ويقنعهن بالجلوس على كرسي موصول بأنبوبة الغاز، حين تستسلم المرأة للغاز، يقوم بإغتصابها ثم ذبحها، ربما خوفاً مما قد يحدث حين تستيقظ.

كان "كريستي" يفقد رغبته الجنسية إذا أظهرت الفتاة أية علامة على فرديتها كإنسانة، مايريده هو فتاة أكثر بقليل من فتاة أحلام يقظته الجنسية، سلبية تماماً، حتى يستطيع أن يصل إلى لحظة نشوته، المعادلة لرؤية نيتشة على قمة التل، وعليه بعد ذلك على الفور أن يواجه مشكلة ماسيفعله بفتاة ميتة، وقد كان يخفيهن بدولاب في الحائط.

ألا يبدو عمله هذا، خطوة تالية، لما كان سيحدث لبطل موباسان، بكلمات أخرى، كل الإنحرافات الجنسية لها الأساس أو الجذر نفسه: هذا التصادم بين العالم الواقعي، والعالم كما تود أن تراه. والفرق بين الشخص الطبيعي جنسياً، والشخص المنحرف، والمجرم الجنسي هو فرق في الدرجة فقط.

قد تكون هذه نتيجة مزعجة، لكن تجاهلها لا يخدم أي هدف. فالحقيقة حول الجنس مزعجة. ويجب أن ندرك أن كل الرجال، ماعدا قلة، يشعرون بأن حقهم الجنسي مهضوم، بمعنى انهم ينالون أقل مما يستحقون من المتعة الجنسية. وحين يقرأون عن قاتل جنسي مثل "جيرالد تومبسون"، قد يهزون رؤوسهم اعتراضاً، لكن اعتراضهم ينصب فقط على طريقة "تومبسون" بالإغتصاب بالقوة لنساء غير مستعدات لذلك. فهو كان يحاول تحقيق مايريده كل الرجال - حرية امتلاك أية امرأة جميلة في العالم. لقد وضع بطل باربوس حقيقة أساسية: "ليست امرأة التي أريدها، بل كل النساء".

معظم الإنحرافات الجنسية (وذلك لا يشمل الشذوذ الجنسي بالطبع) هي محاولة لتلمس تحقيق ذلك، كما نرى مثلاً في حالة المتلصص، فهو يرتكب نوعاً من الإغتصاب غير الضار، إنه ينتهك خصوصية المرأة بدل أن ينتهك جسدها. (لكن قد يقود الواحد للآخر، كما في حالة "فلويد" مثلاً، كان سائق لوري في تكساس، بدأ انحرافه كمتلصص وانتهى بقاتل جنسي لعدد من النساء). كذلك "الفيتيشية" - التعلق بأحد أشياء المرأة - هي بوضوح محاولة لإمتلاك نساء غريبات دون مشكلة التورط الشخصي. وخطوة واحدة أخرى تؤدي إلى إنحراف جنسي أخطر، كما في حالة الشاويش برتراند الذي يمارس الجنس مع الأموات، أو القاتل الجنسي كريستي. وخطوة أخرى قد تقود إلى السادية، فالرجل يريد فتاة أكثر قليلاً من حلم اليقظة الجنسي، ويحاول إقناع نفسه بذلك عن طريق تعذيبها.

يجب أن ندرك أن رغبة الذكر الجنسية في الأساس هي رغبة موضوعية. وقد ظلت الروايات الرومانسية تخبرنا لسنوات أن الحب هو أمر شخصي بدرجة كبيرة، وأن روميو وجولييت، أو ترستان وايزولدا، يتوافق كل منهما مع الآخر، بحيث أنهما يريدان أن يكونا معاً حتى بعد الموت. إنها فكرة مؤثرة، لكنها غير حقيقية بالنسبة لواقع الجنس. من الممكن أن نتحدث، بالطريقة نفسها، عن رجل يستمتع بطعامه بدرجة كبيرة حتى أنه يريد أن يتوحد معه حتى بعد الموت. وهذا كلام فارغ، إن الرجل يشبه النمر الذي يبحث عن وجبة جيدة.

وليس معنى ذلك أن الحب ليس موجوداً بين الرجل والمرأة، فالناس تحتاج بعضها البعض على المستوى الشخصي كما على المستوى الجنسي، ولكن الرومانسيين الكبار يصرون على إدماج الشخصي والجنسي معاً، ويسمون ذلك بالحب. وهذا تفكير مشوش.

وقد يوضح هذا الأمر جريمة وقعت في هولندا. "جان" و"إدا"، ولد وبنت، كلاهما في الخامسة عشرة من العمر، وهما طفلان لأبوين محترمين. أحب كل منهما الآخر. وكان "جان" يحب أن يلعب لعبة الهنود الحمر، وكانت "إدا" تشاركه اللعب في دور سجينة على وشك أن يُسلخ رأسها، وتحرق. كان جان يرسم لها صوراً وهي مستلقية على ظهرها، ويعلم بالصلبان على الأماكن التي يريد أن يغرس فيها الدبابيس، وكانت "أدا" مفتونة بهذه الخيالات الغريبة، وتجد متعة، مساوية لمتعة جان، من تخيل نفسها السجينة التي على وشك أن يعذبها هذا الجلاد القاسي. لقد تناسبت خيالاتهما تماماً. واحتفظت "إدا" بيوميات عبرت فيها بشاعرية عن حبها "لجان"، وكتبت "أحبك، ولو قتلتني فلن أعترض. الحب شئ لا يمكن فهمه".

ويوماً ما، فقد "جان" السيطرة على رغباته. اشترى سكين كشافة، واستعار حبل القفز الخاص بأخيه الأصغر، وأخذ "إدا" ليلاً إلى مكان مهجور لإطلاق النار، وربطها، برغبتها إلى بعض قضبان السكة الحديد. شعرت بالخوف بعد ذلك، وبدأت تناضل لفك نفسها، واستثارته بحركاتها، فبدأ يُحدث ثقوباً بجسدها بالسكين، ثم طعنها وقطع رقبتها، وسلّم نفسه للشرطة واعترف بكل شئ.

في هذه الحالة، نرى أن الحب بينهما كان ببساطة، تداخلاً بين خيالين وعالمين من الأحلام. حلم "جان" بفتاة رقيقة مثالية، مستسلمة تماماً وسلبية، وحلمت "إدا" بالإستسلام لقوة شرسة إيجابية (كتبت في مذكراتها: أعبدك ياوحش الوحوش). ليس الحب هو ماكان بينهما، فقد كانا يتكلمان لغة مختلفة، لكن كلا منهما، ناسب تماماً عالم حلم الآخر، حتى انطلق "جان" فجأة خارج عالم حلمها. فأدركت أنه بالفعل شخص آخر، كائن غريب، مرّيخي (من المريخ)، عنكبوت تعب من التظاهر أنه في حالة حب مع ذبابة.

ولذا ندرك قلة الإنحرافات الجنسية لدى المرأة بالمقارنة بالرجل، ليس لأن المرأة أقرب إلى الواقعية من الرجل، وليس لأنها يمكن أن تقبل حبيبها كماهو، ولكن بسبب أن حلم المرأة يميل للسلبية، بينما حلم الرجل يميل للإيجابية، والإثنان، الرجال والنساء، يعيشون في عالم أحلامهم الخاص. ولذا فإن الرجل يحاول إخضاع المرأة لتناسب خياله، مثل العملاق "بروكرست" الذي يمط الإنسان أو يقطع قدميه ليجعله مناسباً لسريره. ولذلك نرى انحرافاً واحداً عند المرأة - المازوخية أو حب تعذيب الذات - مقابل نصف دستة من الإنحرافات عند الرجل.

ذكر عالم النفس "ستيكل" حالة غريبة لفتاة محبطة جنسياً، اعتادت أن تتخيل نفسها تستلقي عارية على "قرسة" الجزار، تنتظر القتل، ويأتي صبي الجزار ليلمسها بغلظة، حتى يأتي الجزار ويتفحصها، وقبل أن يستل سكينة يضع إصبعه في فرجها، وهنا تنتاب الفتاة نشوة جنسية عارمة، وينتهي التخيل - قبل القتل الفعلي.

شخصية "إدا" تبدو في أساسها، مشابهة لهذه الفتاة، وخيالها ينتهي قبل القتل، ولسوء الحظ فإن خيال حبيبها لم يتوقف.

لا أحاول هنا أن أفضح زيف فكرة الحب، فالناس قد تكوّن فيما بينها علاقات قوية وعميقة، بالضبط كالود الشخصي الحقيقي الذي تشعر به نحو البقال الذي تشتري منه حاجاتك، لكن علاقتك به مازالت قائمة على أساس أنه يزودك بما تحتاجه من بقالة، وأنت تزوده بما يحتاجه من نقود. أو كعلاقة البقال بزوجته، فهي قائمة على أساس أنها تزوده بما يحتاجه، وهو يزودها بما تحتاجه.

إذا أدركنا ذلك، نكون قد فهمنا أكثر الأشياء أهمية حول الجنس، وأيضاً عن حياة الجنس البشري. ولا نعود إلى تقسيم عالم الجنس إلى طبيعي، وغير طبيعي. ولكن هذا لا يعني أن الجنس كله طبيعي، فذلك سيكون نوعاً من العبث، لكني أود القول أن الجنس كله، بشكل أو بآخر أمر غير طبيعي، لأن هناك في الوجود البشري كله شيئاً غير طبيعي. نحن نؤمن بأن الجنس طبيعي لأننا نعتقد أنه مثل الأكل والشرب، شهية جسدية محضة. إنه ليس كذلك، هناك الكثير من الخداع حول الجنس، إنه أكبر الخدع السحرية لو فكرنا فيه قليلاً لكن السؤال: إذا كان الجنس خدعة سحرية.. فمن هو الساحر في الحقيقة؟ هذا هو السؤال الذي حاول الفلاسفة والقديسون الإجابة عليه منذ تعلم الإنسان التفكير.

وهذا هو السبب الحيوي المهم الذي يدفعنا أن نتعلم كيف نفكر بذكاء حول موضوع الجنس.

الفصل الخامس

معركة الأدب الجنسى الكبيرة

من المشكوك فيه أن تكون هناك أية ثورة حنسية بدون الكتب، فلنلق نظرة أقرب وأكثر تفصيلاً على هذه الثورة الجنسية في القرن العشرين، ونرى إلى أين تقودنا.

كان القرن التاسع عشر هو قرن الحب الرومانسي، وكان شعاره "الحب يجعل العالم يدور"، ورؤيته الجوهرية، إنه لا يوجد من هو أهم من عاشقين يعيشان معاً في سعادة.

ومازلنا نجد كثيراً من هذا الحب الرومانسي في مجلات المرأة المعاصرة، لكن في القرن التاسع عشر وُجدت روايات أدبية كبيرة تُعبر عنه مثل "مرتفعات ويذرنج" أو "تريستان وايزولدا"، وكانت هذه الأعمال تقول "الحب أكثر أهمية من الموت"، ولأنها أعمال أدبية كبيرة، فإنها تقنعك بأن ذلك حقيقي.

لكن حين تنظر إليها بدقة، فستجد أن القرن الرومانسي لم يكن على تلك الدرجة من الرومانسية. لو فكرت في كتّابه العظام، لوجدت أن قليلاً منهم من شغل نفسه كثيراً بالحب - ديكنز، ثاكري، تولستوي، ديستوفيسكي، إبسن، ... وغيرهم - إنه المستوى الأرخص من الأدب هو الذي أعطى الحب أهميته تلك. كانت هناك قطعان من الروائيات اللواتي أغتنين من السمسرة بجوع المرأة الفيكتورية للحب والرومانسية، وكان المسرح يعج بموسيقى الحب الرومانسي، وكله وجدان مكثف.

وحين جرؤ "فلوبير" على كتابة رواية واقعية - مدام بوفاري - عن امرأة حطمت زواجها لتعطشها للحب الرومانسي، أُتهم بأنه أخس وأقذر متشائم ساخر.

وبعد سنوات قليلة حدث الشيء نفسه "لإبسن" حين تعّرض في مسرحيته "بيت الدمية" لزواج رومانسي تماماً، ثم جعل بطلته تترك زوجها وأطفالها لتبحث عن ذاتها، وكانت رسالة إبسن "كل هذا الحب الرومانسي كذبة سخيفة، فالحياة قد خُلقت لما هو أهم من ذلك بكثير".

في نهاية القرن التاسع عشر، بدأت ثورة التحرر الجنسي تشق طريقها، فقد حدث نوع من الإثارة حين صوّر برناردشو النساء بعقل مستقل، يردن الرجل ويسعون للفوز به. وكاد هـ.ج. ويلز أن يحاكم على روايته "أنّا فيرونيكا"، وهي عن فتاة صغيرة تستمتع بفعل الحب بحرية.

حتى د.هـ. لورنس الذي نشر أولى رواياته سنة ١٩١٠ وجد نفسه وسط المتاعب بتهمة صراحته الشديدة حول الجنس في روايته "الخاطئ"، ثم مُنعت روايته "نساء عاشقات". وكل مشكلة "لورنس" أنه كان شاعراً جرؤَ أن يكون صريحاً حول الجنس. إن كيتس، وشيللي، وورد ذورث، قد يعتقدون بأهمية الجنس، لكن لا يمكنهم أن يكونوا صرحاء حوله، وكان عليهم أن يقتصروا بتصوير نشواتهم على جمال الطبيعة. وشعر لورنس أن معظم الناس قد أصابهم العمى والصمم عن أحد الأشياء المهمة في الحياة - وهو الجنس. وشعر أيضاً أن الحياة الحديثة تزداد ضحالة وتفاهة وعدم إقناع. وأوضح في روايته "عشيق الليدي تشاترلي" أن المرأة التي تشعر بالضياع والقلق، تجد معنى أعمق للواقع، في حكاية حب مع الحارس. فلورنس يرى أن الجنس هو أهم مايمكن أن يحدث لرجل أو امرأة، ولكن يجب أن نلاحظ أن حكاية الحب الشاعرية بين السيدة "تشاترلي" وحارسها، وقعت في كوخ وسط الغابة. إن لورنس يكره المدن الحديثة بقبحها وتعقيدها، بالضبط كما كره وردذورث لندن. فالطبيعة مهمة له كالجنس تماماً، وهو يكون في أحسن حالاته ككاتب حين يصف الطبيعة.

كان لورنس شخصاً وحيداً في ثورة التحرر الجنسي، معظم الثوار الآخرين كانوا مهتمين بالتدمير فقط، وبالتخلص من المحرمات القديمة للفيكتوريين، والسخرية من العاطفة القديمة.

رواية "عوليس" لجيمس جويس، التي ظهرت قبل رواية "ليدي تشاترلي"، صدمت الكثيرين ببذاءتها. وهناك كثير من الصحة في هذا القول، فقد أراد "جويس" أن يكون بذيئاً. أراد أن يصدم

الناس بأن يسجل في روايته العبارات التي لا يراها الناس إلا على جدران المراحيض. كان "جويس" في الأربعين حين نشرت عوليس، وقد شعر أنه أهمل فترة طويلة، وأراد أن يجلس، ويرى الناس يتحدثون عن روايته. ولقد استخدم في مشهد بيت الدعارة كمية من الكلمات التي لم تطبع على ورق من قبل، كما أنهى كتابه بأن جعل البطل يقبل مؤخرة زوجته.

لقد كانت "عوليس" هي الرواية التي شجّعت كتابة الأدب الجنسي الذي مازال يكتب حتى اليوم. قال النقاد الجادون "إنها رواية هامة جداً، مملوءة بالعبقرية والأصالة". وأجاب الجمهور المصدوم "قد تكونون على صواب، ولكن ماذا يحدث لو تسامحنا مع هذا النوع من القذارة بحجة أصالة الكتاب؟ سنجد أن كل مراهق يقرأ هذا الأدب، يمارس الإنحراف في سن الرابعة عشر". ويجيب المدافعون "كلام فارغ. فالمراهقون يعرفون عن الجنس مايعرفه البالغون، ولا ضرر من إبراز هذه المعرفة علناً". الجانبان لديهما بعض الحق.فالجمهور يبالغ من خطر نشر كتاب كعوليس علانية، فهو كتاب صعب القراءة، وأي مراهق لديه الذكاء الكافي لقراءته، فهو بالتأكيد سيكون لديه من الذكاء مايمنعه من الفساد. لكن الجمهور أيضاً، ليس على خطأ مطلق، فعوليس شكلت سابقة، أدت إلى النشر العلني لعدد كبير من كتب الأدب الجنسي.

الجنس في عوليس، كان القصد منه أن يصدم، ومشهد بيت الدعارة صفعة على الوجه مقصودة لترويع القارئ، لكن الجزء الأكبر من الرواية، وهي تزيد على سبعمائة صفحة، هو وصف دقيق بطيء لكل فكرة أو عمل يقوم به عدد من الناس العاديين خلال يوم عادي. عنصر الصدمة رفع الكتاب كله إلى مستوى جديد من الإهمال كذروة سيمفونية، وبدون الجنس والبذاءة فإن الكتاب يكون مملاً غير مقروء.

وقد وقع الروائيون قبل جويس، في متاعب بسبب البذاءة، توماس هاردي وإميل زولا على سبيل المثال، لكنهم كانوا يدافعون عن أنفسهم بالقول إن المشاهد في كتبهم ليست بذيئة ولكنها واقعية ومستمدة من الحياة. أما الآن، فبيت الدعارة الذي صوّره جويس لم يكن يقصد به أن يكون واقعياً كالحياة، إنه نوع من الكابوس الذي يجري في ذهن إحدى الشخصيات، لقد قُصد به أن يصدم. وقد كان يوماً أغرَّ حين سمح القانون سنة ١٩٣٠ بالنشر العلني لرواية عوليس في إنجلترا وأمريكا.

ولقد استخدم الكاتب الأمريكي وليم فوكنر أساليب جيمس جويس الصادمة في كثير من رواياته. وتشعر وأنت تقرأه كيف يحاول استخدام الجنس والعنف لضرب قارئه في الصميم. إنه يريد تقديم مشهد قاس ومتوحش من الحياة، والعنف أداة مفيدة للغاية من هذه الناحية. في روايته "الصخب والعنف" هناك "تيمة" قوية في موضوع الزنا بالمحارم وكذلك حول الإنتحار. في روايته "المعبد" يتحدث عن فتاة غنية يخطفها أحد رجال العصابات، ويزيل بكارتها بعرنوس ذرة لعجزه الجنسي، وبعد ذلك يسمح لرفيق له أن يمارس معها الجنس بينما هو ينام على السرير، مرتدياً قبعته ويصهل كالفرس. وتنتهي الرواية بحرق رجل بريء على يد الرعاع بتهمة الإغتصاب.

حين نقول أن "فوكنر" يقصد أن يصدم قارئه، فنحن لا ننقده، فجميع كتبه، مثله مثل لورنس، هي نقد للعالم الحديث، والصدمة وسيلة مهمة للتعبير عن ذلك. إنه شاعر آخر متمرد. ولا أحاول هنا أن أعني، ضمناً، إن لورنس وجويس وفوكنر فوق النقد. فهناك عنصر طفولي مفسد، في لورنس، يجعله غالباً متعذراً على القراءة برغم كل نواياه الطيبة، فرواية "ليدي تشاترلي" رواية فقيرة جداً. وكذلك هناك العنصر نفسه من عدم النضج عند جويس وفوكنر، فكلاهما لم ينضج تماماً، ولقد فشل فوكنر في النضج لأنه لم يواجه قط مشاكله، وفضّل أن يقضي معظم وقته مخموراً.

ومازال القانون يحارب معركة صعبة ضد البذاءة، ولذا، وإذا كانت "عوليس" ليست هي إشارة البدء في إنهمار سيل من الكتب الصادمة عمداً، فإن "معبد" فوكنر، المتأثرة بعوليس، بدأت هذه الموضة، حتى أن في أواخر الثلاثينيات. كانت هناك ملايين من الطبعات الشعبية لمثل هذه الروايات في يد الجمهور، تتحدث عن العصابات والجنس والسادية.

ومن أشهر هذه الروايات، رواية "لازهور للأنسة بلانديش" من تأليف هاذلي شيس، وهي مثل "المعبد" تتحدث عن خطف فتاة غنية على يد رجال عصابة أحد أفرادها منحرف. ولقد اعتزم رجال العصابة قتل "مس بلانديش" بمجرد أن يتسلموا الفدية، لكن رئيستهم، وهي امرأة عجوز شريرة، وقفت ضد قرارهم، فقد كان لديها ابن سادي اعتاد أن يقطع رقاب القطط وهو صغير، ولم يُبد أي اهتمام بالمرأة حتى ظهرت بلانديش، فسلمتها إليه ولم يحدد المؤلف ماذا حدث لها بالضبط، لكنه يخبرنا بأن الإبن مارس عليها كل لذة استطاع عقله الملتوي أن يخترعها، في نهاية الرواية حين قُتل جميع أفراد العصابة وأنقذت مس بلانديش، انتحرت، ربما لأنها لم تستطع الحياة دون اهتمامات الإبن الشاذ. ومثل معظم روايات العصابات في ذلك الوقت، فرواية "مس بلانديش" ساخرة تماماً، وليس فيها أبطال، ورجال البوليس قساة ومرتشون كرجال العصابات، والأحداث تدور في عالم بلا قيم.

هذا النوع من الروايات أصبح شعبياً بدرجة كبيرة في الأربعينيات، واستخدم المؤلفون أسماء توحي مضامينها بالعنف، وعناوين مثل "لا تستديري أيتها السيدة" أو "سأبصق على قبرك". إحدى الروايات تبدأ باختطاف ابنة رئيس شرطة، ويقفز شرطي على عربة العصابة، فينحرف سائق العصابة عمداً تجاه عربة أخرى ليسحق الرجل بين العربتين، مع أوصاف مناسبة لسحق شظايا العظم، وانبثاق الدم. وتؤخذ الفتاة إلى مخبأ زعيم العصابة ليستجوبها، وحين تهدده يضربها على فكّها، فتقع على الأرض، وتشتبك "جونلتها" بكرسي مما يكشف ملابسها الداخلية. يتبع ذلك مشهد إغتصاب، ورئيس العصابة يتمتم وهو يتحسس ملابسها "ستكونين بخير ياطفلتي".

هذا النوع من الكتابة – دون أية ميزة أدبية – انتشر علانية عبر الطبعات الشعبية منذ الأربعينيات، ومازال حتى اليوم، وهو نتيجة مباشرة لرواية "المعبد" لفوكنر، التي كانت بدورها نتيجة مباشرة لعوليس. ولذا فإن الذين اعترضوا على نشر عوليس، لم يكونوا على خطأ تماماً في تأثيرها السيء.

في منتصف الخمسينيات، قدم "إيان فليمنج" اتجاهاً جديداً لرواية العصابات في سلسلة رواياته عن جيمس بوند، هذه الروايات مكتوبة بشكل أفضل من معظم روايات العصابات في الأربعينيات. فهو يكتب أفضل من أسلافه الذين ابتدعوا شخصيات مثل القديس، وتوف، وبولدوج دراموند، وماشابه. كما أن هناك عنصراً واعياً من السخرية بالنفس في أعماله، لكنها جميعاً أعمال قذرة بشكل واضح.

بداية، من الضروري لرواية العنف أن تكون شخصياتها شريرة وقاسية تماماً، ولقد اختار "فليمنج" الروس ليكونوا كبش الفداء. وليس بالضرورة أن يكون المرء شيوعياً أو متعاطفاً مع الشيوعية ليدرك أن عداء "فليمنج" للروس يحمل طبيعة شريرة. إنه يذكرنا بمعاداة هتلر للسامية. وفي مقابلة مع مجلة "بلاي بوي" قبل أن يموت بفترة قصيرة، حاول "فليمنج" أن يقلل من هذا العداء بقوله إنه كان يداعب الروس، كما لو أن الأمر كله سخرية بريئة مقبولة - ولكن أي قارئ لروايته "من روسيا مع حبي" سيدرك أنها كراهية عرقية تماماً. الذي يهمنا هنا، هو موقف فليمنج من الجنس، وهو موقف غير حقيقي مثل معظم المواقف العاطفية الزائفة في الروايات الفكتورية، وكله عبارة عن أحلام يقظة طالب مدرسة.

ان مكافأة "بوند" في كفاحه ضد وحوش الشر، أن يجد نفسه باستمرار في علاقة حميمية مع فتيات باهرات الجمال بملابس داخلية سوداء. كل أحلام اليقظة التي يتخيلها تلميذ بمدرسة، نجدها في كتب جيمس بوند. لقد جمع "فليمنج" كل العناصر التي أنجحت روايات الجريمة الأولى: عربة القديس الغالية، تذوق الطعام الجيد، سادية لازهور لمس بلانديش، رجال عصابات ميكي سبيلين ودارس كلنيتو، وأعاد إنتاجها جميعاً بعد صقلها. والنتيجة قذارة مسلية ممزوجة بالسم.

هناك شئ ما ودّي، يشدك دون أن تشعر عند قراءتك لشرلوك هولمز أو بولدج دراموند، ويمكنك أن تبتلع عواطف رواد المدرسة القديمة بمتعة، لكن في روايات جيمس بوند، فالأمر مختلف، حتى عنصر المحاكاة التهكمية للتراث لا يستطيع أن يبعد عنك الإحساس بأن كل هذا الإستغلال للسخرية من بذاءات العالم الحديث، ماهو إلا حيلة من أجل كسب النقود. إنها أفضل قليلاً من تلك المنسوخات المطبوعة على الآلة الكاتبة التي كتبت خصيصاً للمنحرفين الذين يحبون إغتصاب الأطفال أو أن يُضربوا، والتي تباع سراً في تقاطع "شيرنج كروس". كذلك ينتابك الشعور نفسه الذي مر بك عند قراءة رواية "لازهور لمس بلانديش"، وهو أن العالم الذي نعيش فيه مكوّن من القسوة والعنف والشهوة، مع الفارق بأن رجال العصابات اليوم توقفوا عن خطف الوارثات، فهم يسرقون قنابل ذرية، ويهددون بتدمير مدن حديثة إذا لم تدفع لهم فدية بالملايين. ومن ناحية أخرى، فإن "فليمنج" يتجه إلى القيم المنحرفة عن قصد كما كان يفعل الماركيز دي ساد.

لقد قصد "فليمنج" أن يكون "بوند" بطلاً يتحلى بصفات هي أصلاً موجودة في الأشرار. فم رفيع قاس، حب للرفاهية والحياة السهلة، ترخيص بقتل الآخرين، وميل لنبذ الفتيات بمجرد أن يمتلكهن.

اهتممت بروايات بوند لأنها التطور المنطقي لعدم منع نشر رواية عوليس. المنادون بعدم المنع قالوا أننا سنجني شراً أكثر في حالة استمرار منع طبع هذه الكتب. وأحياناً يكون المطالبون بالمنع، محافظين متعصبين، نموذجهم في الأدب هو رايدر هيجارد مثلاً، لكن الكثير منهم أراد أن يعرف ببساطة، ماهو الحد الفاصل بين الأدب ومثل هذه الكتب التي تباع سراً والمكتوبة خصيصاً للذين يحبون أن يُجلدوا بالسياط، أو يرتدوا ملابس النساء، وتباع لأي مراهق يريد شراءها. ولسوء الحظ، فإن كتب جيمس بوند، تشير إلى أنهم على حق.

ليس الإعتراض هنا على المواجهة الجادة للسادية أو الإنحرافات الأخرى، ولكن على استغلال هذه الموضوعات عن قصد من أجل كسب النقود.

لدينا قوانين ضد بيع المخدرات علناً، لأننا نعرف أن هناك أناساً تجذبهم فكرة تدمير الذات. لدينا قوانين ضد إفساد القاصرين، لأننا نعرف أن مبتزي المال يمكنهم فتح بيوت دعارة ناجحة جداً للرجال الذين يستمتعون بممارسة الجنس مع القاصرين. ولا أحد يفترض بأن إلغاء مثل هذه القوانين سيجعل للهيروين شعبية كالويسكي، أو أن الرجال سيغيرون ذوقهم ويستمتعون بإغواء فتيات في العاشرة، لكننا ندرك أن هناك نسبة ضئيلة ستصبح مدمنة للهيروين أو مُغوية للقصّر، وهذا كاف لكي نُبقي على هذه القوانين.

والحالة ضد البيع العلني لكتب الأدب الجنسي مشابهة لذلك، وليس الأمر قضية غباء مجموعة من المحافظين ضد المتحررين الأذكياء.

واستمرت الثورة الجنسية في الخمسينيات والستينيات وحتى الآن، وتستحق أن نتابعها ببعض التفصيل. أول الغيث في الأدب الجنسي المعاصر، كانت "لوليتا" لفلاديمير نابوكوف، طُبعت وبيعت سراً للسائحين الأمريكيين في باريس سنة ١٩٥٥، وكان موضوعها عن رجل بالغ يغوي فتاة صغيرة.

هناك الكثير مما يمكن قوله مدحاً في الكتاب، فهو مكتوب بأسلوب جيد، على يد كاتب ساخر أصيل، ولا اختلاف هناك بأنها كُتبت من أجل كسب النقود. موضوعها الحقيقي، ليس، ببساطة، هو إنحراف رجل في أواسط العمر، إنها عن كل الرغبات الجنسية غير المشبعة في مجتمعنا، كل الجوع الجنسي الذي يعتبر الذكر أنه لم يحصل عليه، بكلمات أخرى، إنها تنويعة على كلمات باربوس "ليست امرأة التي أريدها، بل كل النساء".

لوليتا هي رمز لكل ملايين الفتيات المرغوبات واللواتي يصعب الحصول عليهن في كل مدينة، الفتيات اللواتي ينظر الرجل إليهن كالطفل ينظر إلى واجهة محل للحلويات. وهذا هو السبب، بلاشك، الذي سمح بعد ذلك لأن تطبع لوليتا في إنجلترا وأمريكا دون تحفظات. وبرغم موضوعها فهي

معتبر من الأعمال الأدبية الجيدة، بالإضافة إلى أنها لا تحتوي على أية مشاهد جنسية مثيرة. معظم الجنس فيها تُرك للخيال. وهكذا أصبحت من الكتب الرائجة جداً في أمريكا وبريطانيا، وسقط حاجز آخر.

كانت الخطوة التالية، نشر رواية "عشيق الليدي تشاترلي". علناً في أمريكا، وأصبحت أيضاً من الكتب الرائجة جداً. وبلاشك كان يمكن أن تُنشر في بريطانيا دون ضجة لو صدرت في طبعة فاخرة غالية الثمن بغلاف سميك، لكن ناشري الكتب الشعبية أصروا على نشرها مباشرة في طبعة ذات غلاف ورقي رخيص. ورُفعت قضية ضد الكتاب، وحورب طويلاً بعنف، لكن النتيجة كانت نشره كاملاً دون حذف في إنجلترا سنة ١٩٦٠.

وبدأ الناشرون الأمريكيون يتنافسون في البحث عن الكلاسيكيات البذيئة ونشرها، وكان هنري ميللر هو التالي على القائمة، وكانت روايته "مدار السرطان" هي الكتاب المثالي لمثل هذا الهدف. لقد مدحها عدد من النقاد الجادين منذ ظهورها في باريس في الثلاثينيات، لكنها رواية مملة للغاية، وهي تصف حياة ميللر الخاصة وهو صعلوك في باريس. كان ميللر كاتباً محبطاً، وقد صب كمية كبيرة من الإدعاء في روايته - مستخدماً أسلوب النثر الشعري وماشابه حتى يمكن تصنيف الكتاب بسهولة كأدب. ولم تكن هناك محاولة لمنعه في أمريكا - عدا بعض الولايات - واصبح فوراً من الكتب الرائجة، ومهّد الطريق لصدور كتب ميللر الأخرى، مثل مدار الجدي وربيع أسود. ونُشر في بريطانيا الجزء الثاني والثالث من ثلاثيته "الصلب الوردي" ولم يطبعا في أمريكا لأسباب تتعلق بتهمة التشهير، وتأخرت طباعة الجزء الأول Sexus لما يتضمنه من جنس، وكان الحل هو صدور طبعة فاخرة غالية تصرف نظر المدعي العام عن مصادرة الكتاب.

وأصبح الآن، كقاعدة عامة، ان أي كتاب يمكن اعتباره جاداً في موضوعه، يُطبع دون مشاكل. وكانت طباعة "حياتي وغرامياتي" لفرانك هاريس علامة أخرى، وهو كتاب ضخم في أكثر من ألف صفحة، لا يوجد فيها أكثر من خمسين صفحة جنسية، والباقي سرد لقصص لا تنتهي عن معارف هاريس المميزين.

وإذا عُرف بأن الأدب الجنسي هو استغلال للجنس الخام للحصول على المال، فكتاب هاريس ليس جنسياً من هذه الناحية، فقد كان إهتمام هاريس بالنقود أقل من إهتمامه بإظهار نفسه كم كان عظيما.

لكن حدث تطور عجيب ومهم في مسألة نشر الكتب الجنسية.

هوجم مرة كتاب على أنه جنسي، فأصبح على الفور وبشكل آلي على قائمة أشهر المبيعات. وهكذا أدرك حراس الأخلاق أنه إذا لم يكن الكتاب فاضحاً بدرجة كبيرة، فلن يتحدثوا عنه حتى لا يصبحوا وكلاء للإعلان عن كتب الأدب الجنسي. والنتيجة أن مئات من الروايات المعاصرة تحتوي على مشاهد جنسية حرص كل فرد على عدم ذكرها، والقارئ لها بالمصادفة، سيصاب بالرعب حين

يكتشف مشاهد توقف شعر الرأس من الإنحراف الجنسي، في وسط رواية شعبية اشتراها من بائع في محطة السكة الحديد.

من أمثلة ذلك الروائي "هارولد روبنز" الذي نشر عدة روايات دون أن يثير عليه أحد. ثم جاءت روايته "بائع السجاد الجائلون"، وينتاب المرء احساس بأنه قال إذا لم تأت هذه الرواية بنتيجة، فلا شئ سياتي بها. وبالطبع أتت أُكُلها. كل الروايات الجنسية التي كانت محظورة يمكنك الآن الحصول عليها من أي كشك للكتب، في أية محطة، وبطبعة شعبية رخيصة.

النتيجة المثيرة لكل ذلك، أن الجنس لم يعد كافياً لوضع كتاب على قائمة الكتب الرائجة، ولكي يحقق ذلك لابد أن يحمل الكتاب وجهة نظر، مثل رواية "تقرير شابمان The chapman report لإرفنج والاس، وقد بناها على بحوث "كينزي" في الجنس، وطبّق هذه البحوث على ضاحية أمريكية نموذجية، أو مثل رواية "بايتون بليس" لجريس ميتاليوس، التي أخذت على عاتقها كشف ستر بلدة محترمة صغيرة.

لكن عشرات من الكتب التي قلدت هاتين الروايتين، لم تصل قط إلى قائمة الكتب الرائجة، لأن النقاد لم يكونوا على استعداد لذكر صراحتها الجنسية، أو محاولة منع كل كتاب يتأرجح على الحبل الدقيق للجنس الفاضح.

وأخيراً، تساوت الأمور، وبدأت تصدر روايات ماكان لها أن تصدر قبل عشر سنوات مثلاً. وسأتعرض هنا لروايتين، أحدهما للروائي الأمريكي - من جيل الغضب أو البيتنكس - "وليم بوروز"، وهي بعنوان "الغداء العاري "The naked lunch"، والأخرى بعنوان "كاندي" بقلم تيري سوذرن وماسون هوفينبرج. "الغداء العاري" رواية عن خيالات لمدمن مخدرات عن نفسه، وهو ذو ميول لواطية وسادية قوية. ويبدو أن الرواية واقعة تحت تأثير قوى من مشهد الكابوس في رواية عوليس، فكل شئ يحدث في جو كابوسي من الممكن أن يحدث فيه أي شئ. إنه تكنيك الروايات البوليسية، منقول إلى الأدب بأقصى حالات الجنون. حرية كاملة لكل الخيالات السادية والجنسية دون محاولة لسرد قصة، إنه كابوس كتبه شخص مُعجب بلغة جويس، معجونة بكتب الخيال العلمي ودراكيولا. يقول مثلاً "وابل من الجماجم البللورية هشمت البيت الأخضر إلى شظايا في القمر الشتائي. بركة مغطاة برغة خضراء في حديقة فرنسية خربة، وضفادع ضخمة تنزعم قطيعاً، ترتفع ببطء من الماء على شاطئ طيني، تعزف على آلات وترية.. الخ".

إن قراءة "الغداء العاري" تعطيك إحساساً غريباً بالعبث وبطلان كل شئ. وبالرغم من أن الجنس فعل بسيط، فإن الهندوس يزعمون أن هناك تسعة وستين وضعاً، وقد يصعب عليك تخيل نصف هذا العدد، لكن قراءة "بوروز" تشعرك بأنه ليس هناك حدوداً لممارسة الجنس أكثر مما تقرأ، بالضبط كما في كتاب "دي ساد" مائة وعشرون يوماً في سدوم. إنها تشبه شخصاً نشأ في جو ديني صارم، وفجأة

قرر أن ينغمس في الخطيئة، ويتذوق كل لذة ممنوعة ممكنة، وبعد أيام من هذا الإنغماس، يكتشف أنه لم يبق شئ يفعله. لقد لمس القاع، وبدون الحس الديني القديم، فإن الخطيئة تصبح بلا معنى، فحين تتخلى عن كل قيمة، فإن المتعة تتوقف أن تكون متعة.

باختصار، إن أكثر الأشياء أهمية عند "بوروز"، كما هي عند "دي ساد"، انه يريد أن يكون شريراً وصارماً، ويكتشف أن ذلك مستحيلاً. فما أن تنتهي من الرفس والتمرّد ضد الأشياء التي أخافتك واعتدت عليك وأنت طفل، حتى تتلاشى بسرعة، وتجد نفسك حراً وبالغاً، تواجه بمشكلة أن تكون صالحاً.

ومثل "دي ساد" فإن "بوروز" اكتشف أنه من المستحيل أن تكون شريراً إيجابياً. ولأن هذا هو حلم كل المتمردين، فهم يودون لو أصبحوا شخصيات هائلة متمردة للظلام، مثل شيطان ميلتون، لكنهم يكتشفون أنهم لا يستطيعون أن يكونوا شياطين إلا إذا كان هناك إله يتحدّونه، بكلمات أخرى لا يمكن أن تكون شيطاناً دون أن تكون متديناً، ومحاولاتك لأن تكون شريراً، تتحول إلى شئ تافه وقذر وأحياناً ساخر.

هذ الملاحظات نفسها، تنطبق على الكاتب الفرنسي جان جينيه، الذي طبعت كتبه علناً في الستينيات، لقد حاول أن يكون متمرداً ومجرماً ومنحرفاً كبيراً، وينجح فقط في إظهار أن الجريمة والإنحراف ماهما إلا اسم آخر لعدم النضج.

هناك شئ أود قوله حول نشر كتب بوروز وجينيه علناً، فهي تجعلك تعي شيئاً لم تكن تدركه. وأما بذاءاتهم – ويمكن قول الشئ نفسه عن عوليس، لا تناسب مزاج كل شخص. في الواقع قليل من الناس يستطيع أن يقرأ صفحات كثيرة في هذه الروايات. فهي روايات صعبة لا يتمها الكثيرون، لذلك يمكن القول أن رواية مثل "بائعو السجاد الجائلون" تفسد الشباب أكثر بكثير من رواية "الغداء العاري".

حكاية رواية "كاندي" مختلفة تماماً. فهي مثل كل الكتب الممنوعة، طُبعت أولاً في باريس عن دار أوليمبك بريس، وهي دار تضع عينها على السيّاح الإنجليز والأمريكيين الذين يريدون شراء كتب جنسية. ولكن حين طُبعت في أمريكا أواخر الستينيات أصبحت على قمة قائمة الكتب الرائجة. هي رواية ممتعة، وعدا رواية فاني هيل، فهي أكثر الروايات التي طُبعت علناً، وتتحدث صراحة عن الجنس الفاضح.

تبدأ الرواية، وكأنها النسخة الأنثوية من كانديد لفولتير. قصة رحل مثالي ساذج تقوده براءته للواقع في مطبات مختلفة. وكاندي فتاة أمريكية جميلة وساذجة، تعبد مدرسها في الجامعة وتراه بطلاً، وهو رجل متحذلق يردد عبارات رائعة عن الجمال والحقيقة. ويتضح بعد ذلك أن هذا الأستاذ مزيف

عجوز، اهتمامه الرئيسي هو إغراء تلاميذه الأكثر جمالاً من الذكور والإناث. ولكن في هذا الوقت كانت "كاندي" قد صممت أن ترسو على شاطئ التجربة الجنسية.. ومن هنا تتشكل مادة الكتاب.

والشئ الممتع حول هذه الرواية، إنها كلها تحدث على مستوى الفارس – السخرية. أرادها المؤلفان أن تكون مضحكة وساخرة وقد نجحت في ذلك إلى حد كبير. تعالوا لنرى هذا الموقف العبثي: والدها في المستشفى – نتيجة لضربه على رأسه من أحد عشاقها – ويحاول عمها – الشقيق التوأم لأبيها – أن يمارس معها الجنس على أرضية الغرفة في المستشفى. فتصرخ، وتتجمع الممرضات على صراخها، في الفوضى التي تبعت ذلك، يقع والدها على الأرض ويهرب من المستشفى، الشقيق التوأم، يفاجأ بالممرضات، فيلقي بنفسه على السرير. ولا أحد يكتشف الخطأ لعدة أيام، حتى تأتي زوجة أخيه وتراه بدون سرواله، فتدرك على الفور انه ليس زوجها، من عضو فيه تألفه أكثر من وجهه.

هذا النوع من الروايات كتبه "ثورن سميث" منذ نصف قرن، في كتب مثل "سروال القس" و"الأشباح البشوشة"، لكن سميث لم يستطع أن يكون محدداً، فقد ترك الكثير لمخيلة القارئ. أما رواية "كاندي" فهي لا تترك شيئاً للمخيلة في صراحتها الجنسية.

تنتهي الرواية بموقف عبثي مقصود، تذهب "كاندي" إلى التبت لتصبح راهبة بوذية، وهبت عاصفة، فالتجأت مع راهب عجوز قذر إلى مأوى في المعبد. سقطت صاعقة على المعبد فشقت السقف وأوقعت تمثالاً كبيراً لبوذا، ضغط كاندي والراهب معاً. وانتهى الأمر بممارستهما الجنس، وكانت قد شُبكت مع الراهب بأنف بوذا الضخم المغروس في مؤخرتها. وعند هذه النقطة عرفت في الراهب أباها المفقود، وتنتهي الرواية.

الشئ العجيب في كل هذه الأحداث، أن كاندي كرواية لا تبدو ولا تتظاهر بأنها جادة. كتابة جنسية خفيفة كتبت للسيّاح، وهي ليست رديئة كما أنها ليست جيدة. ولكن فريقاً من النقاد المرموقين وصفوها بأنها كوميديا رائعة، وصرّح أحدهم "لابد أن تكون في كل بيت أمريكي"، وقالت مجلة لايف "إن كاندي رد فعل صحي على الجنس التعس في الولايات المتحدة". وهي تذكرنا بأن من المفروض أن يكون الجنس متعة ولهواً".

كان هذا الرأي سيشعل غضب كاتب مثل د.هـ. لورنس، وأعتقد أنه سيكون على حق. فالقول بأن الجنس متعة ولهو كقولنا أن الحرب هي أحد الألعاب الصحية. إنه رد فعل لعقول تافهة تماماً، يسعدها أن ترى تفاهتها تُعرض بوضوح.

برواية "كاندي" وصلت معركة الأدب الجنسي المكشوف إلى اكتمال دائرتها.

الكتّاب الذين اتهموا بإستغلال الجنس في رواياتهم في القرن التاسع عشر، دافعوا عن أنفسهم بالقول إن ذلك كان ضرورياً لأهدافهم الجادة، والشيء نفسه ينطبق على "الليدي تشاترلي"

و"عوليس"، ونتيجة لأن جويس ولورنس قد كسبا المعركة، فإن كتب بورّوز وجينيه تُطبع علناً الآن. كذلك يمكن الدفاع عن مذكرات فرانك هاريس على أساس أنها وثيقة تاريخية مهمة، حتى "فاني هل" يمكن أن يقال عنها الشيء نفسه.

لكن رواية كاندي ليس فيها مظهر من مظاهر الجدية، كما أنها بلا قيمة تاريخية. تحدثت عنها المقالات النقدية بالقول أنها رواية مبهرة تحمل هجاء مريراً للمجتمع. لكن هذا ليس حقيقياً، فلا توجد سخرية ولا هجاء بعد الفصل الأول، إنها ببساطة رواية كوميدية مطعمة بالجنس، وقيمتها الأدبية ليست أعلى من قيمة "جيم المحظوظ" أو سروال القس.

هذه هي القضية الحقيقية ضد رواية كاندي، فالعالم المعاصر تافه بما فيه الكفاية ولا تنقصه تفاهة أخرى كهذه.

إن الشيء المشترك الوحيد بين جويس وفوكنر ولورنس، هو كراهيتهم لهذه الضحالة، إنهم يريدون أن تؤخذ الحياة بجدية أكبر، يريدون أدباً بمعنى حقيقي من القيم.

إن روايات كعوليس وليدي تشاترلي والمعبد هي في النهاية، روايات غير مشبعة أو مقنعة لأنها سلبية أكثر من اللازم، إنها أعمال متمردة لا أكثر، وهناك بالتأكيد عنصر مرضي فيها جميعاً، لكن الزعم بأن "كاندي" هي رد فعل صحي لهذا العنصر المرضي، هو أكثر الأشياء التي تسبب المرض.

"كاندي" رواية مسلية، وقمامة تافهة. حاول قراءتها في جلسة واحدة، كما فعلت أنا في الطائرة، ستجد أن محاولتك تشبه تجهيز وجبة جيدة من بياض البيض والسكر فقط. وتأثيرها النهائي عليك هو إحساس مزعج بالغثيان العقلي. طبعاً لا يوجد ضرر كبير من نشر الكتاب، لكن نشره مازال علامة على التشوش الأخلاقي البائس وليس دليلاً على التحرر أو الحرية.

وهذا يلخص الموقف اليوم: التشوش الأخلاقي. ويزداد هذا التشوش بالكلاشيهات الفارغة حول الحرية والشجاعة الأخلاقية. المدافعون عن حرية الإبداع يتحدثون كما لو أن المتطهرين والمنافقين يمنعون إبداع الأعمال العظيمة.

في الواقع، إن عوليس هي الرواية الوحيدة الأصيلة التي تقف على حدود العمل العظيم، التي استخدمت البذاءة لتزيد من تأثيرها. "ليدي تشاترلي" أحد أفقر أعمال د.هـ. لورنس، والعالم لن يكون أكثر فقراً لو لم تُطبع رواية فوكنر "المعبد"، بل من الممكن الإستغناء عن الجنس في كل أعمال فوكنر – من بايلون إلى ضوء في أغسطس، دون أن تتأثر قيمته كروائي على الإطلاق.

حكاية حرية الإبداع وصلت إلى مرحلة العبث.

عند محاكمة رواية أرسكين كالدويل أرض الله الصغيرة، وهي عمل فقير نثر عليه الجنس من أجل أن يبيع، وحكمت المحكمة ببراءة الكتاب، أصبح بالطبع أحد الكتب الرائجة وحقق أعلى المبيعات.

والحديث عن حرية الإبداع وعلاقتها بهذه الروايةهو تقليص للقضية إلى لاشيء.

هناك شيء واحد أود أن أوضحه تماماً، فأنا لا أقترح تشديدا وقيودا على وجود الجنس في الأدب، لكني أشير فقط إلى أن النقاش حول الأدب الجنسي - مع أوضد - أصبح كبرج بابل، فكلا الجانبين يتكلمان كلاماً فارغاً.

يتظاهر الذين يعارضون القيود، بأنها حملة أخلاقية كبيرة ضد الحرية، وأن من يعارضهم لابد أن يكون فاشياً أو متعصباً دينياً. يبدو أنهم يعتقدون أنها ميزة إيجابية ألا يكون هناك مستوى ما لأى عمل. إن هذا علامة على عدم مقدرتنا التامة على التفكير السليم المعقول ولو بحده الأدنى.

لم يزعم أحد أن حرية البلاد الأخلاقية على وشك الانهيار لأن الخمور والسجائر لا تباع في مقاصف المدارس. فنحن ندرك فيما يخص الصغار، بأن مقدرتهم على الحرية محدودة بعدم نضجهم ونقص كفايتهم الذاتية، ونحن لذلك مضطرون لوضع بعض الموانع والكوابح.

في البلاد الإسكندنافية، ولسبب ما، فإن المزاج القومي يتجه بإسراف نحو الخمور والقيادة السريعة، فما الذي حدث؟.

الخمور أسعارها مرتفعة جداً، وقيادة السيارات بسرعة عقوبتها شديدة جداً، ولا أحد يزعم أن في ذلك تهديداً خطيراً للحرية الفردية.

بإختصار نطالب بمعاملة الأدب الجنسي كما يعامل الإسكندنافيون الكحول، كبضاعة غالية جداً. لن يسبب أي ضرر، سن قانون بإباحة طباعة كتب مثل "كاندي أو "مائة وعشرون يوماً في سدوم" على ان تكون غالية الثمن.

سيضع ذلك أسس رقابة مؤثرة، دون إضاعة الأنفاس واختلاط الأفكار. ومن يُرد قراءة هذه الكتب، فليشتريها أو يقرؤها في المكتبة، لكن العقبة الحقيقية التي وضعناها ستعمل آلياً كمرشح، كفلتر.

الفصل السادس

الجنس والمستقبل

ماكتبته عن الأدب الجنسي، ينطبق أيضاً على موضوع الحرية الجنسية، فنحن نعيش في عصر تتزايد فيه الحرية الجنسية، ومن الواضح أنه ستأتي فترة تكون فيها الفتيات العذراوات عند الزواج قليلات جداً.

ومن العبث أن نسأل إلى أين يقودنا كل ذلك؟ مع أن السؤال يبدو معقولاً تماماً. ولكي تفهم السبب، تمعّن في السؤال التالي: ماالفرق بين الرجل الذي يعرف كل شيء عن أنواع النبيذ وبين السكير أو مدمن الخمر؟.

الإجابة واضحة: الرجل المهتم حقيقة بالنبيذ يستخدم ذكاءه وتذوقه ليستمتع به حتى النهاية. بينما السكير يريد أن يدمر ذكاءه، وبعد كأسه العاشرة لا يعرف إذا كان ما يشربه نبيذاً أو بيرة أو جناً.

الشيء نفسه يمكن قوله حول الحرية الجنسية، كل شيء يعتمد على شباب المستقبل. قد يصبحون سكيري جنس، وهكذا يدمرون جزءاً هاماً من أنفسهم، أو يتعلمون استخدام العقل والذكاء في الجنس، وفي هذه الحالة فإن الحرية المتزايدة ستكون مفيدة للجميع.

إذا أراد رجل أن يصبح خبيراً في الأنبذة، فهو يبدأ بتعلم شيء ما عن النبيذ، أين ينمو ويُعصر وكيف يُصنع، وماالفرق المتوقع بين نبيذ بورجاندي أو نبيذ بوردو، وإذا لم يعان من أجل تعلم هذه الأشياء، فلن يستطيع أن يعرف الفرق بين النوع الجيد من الخمر أو النوع الرديء.

والشيء نفسه ينطبق على الجنس. إن الفعل الجنسي نفسه سهل جداً ورتيب كفتح زجاجة نبيذ وشربها، ولا يمكن أن يكون فيه أبعد من ذلك، وهذا هو السبب في ان معظم الأدب الجنسي ممل ومضجر.

إن الإعتراض على كتاب "كاندي"، كان بسبب أنه يجعل الجنس يبدو بسيطاً وسهلاً مما يجعله رخيصاً. لكن حين ننظر إليه عن قرب أكثر، ندرك أنه موضوع يحتاج لحياة كاملة حتى نفهمه.

اسمحوا لي أن أقدم مثلاً لهذ التعقيد ...في رواية "كاندي" لم تفقد البطلة عذريتها بالفعل حتى الصفحات الأخيرة من الكتاب. لقد اقتربت في الصفحات والأحداث السابقة، من فقدان هذه العذرية، لكن ذلك لم يحدث. وأول وصف للممارسة الجنسية الفعلية لم يحدث إلا في اللحظة الأخيرة من الكتاب. والسبب واضح جداً. فالمؤلفان أرادا أن يحشدا توقعات القراء لهذه اللحظة، والمشهد الفعلي للعملية الجنسية مسروق تماماً من الكاتب الإيطالي بوكاتشيو، راهب يتظاهر بتعليم الفتاة السيطرة على الحواس، ويخبرها بأنه بالرغم مما يبدو وكأنه يمارس الجنس معها، إلا أنه يعلمها النظام الروحي. وبما أن الكتاب كان يحتشد للوصول إلى هذه النقطة، فمن المنطقي أن تكون هي ذروة العمل، مع أنها ليست كذلك. وإذا قرأت الكتاب، ستعرف لماذا ترك المؤلفان هذا الموضوع للنهاية.. لكي يجعلا القارئ يتساءل.. وماذا الآن؟.

وهذا يلقي ضوءاً كبيراً على الأسرار الأساسية للجنس عند البشر. حين يستثار كلب بسبب الرائحة التي تفرزها الأنثى، فإن حياته في تلك اللحظة تتركز على فعل الجنس. وينتهي الأمر في عدة دقائق ويذهب كل منهما إلى سبيله. ذلك كل مافي الأمر. وحتى لو كان الكلب في ذكاء الإنسان، فسيظل غير قادر على فهم كتاب مثل كاندي.. لماذا؟.

ماذا يحدث حين تغني في حمامك ويرتفع صوتك بنغمة عالية، هل تجهد نفسك بالإستمرار، أو تخفض صوتك وتغني بنغمة منخفضة؟. أو إذا كنت تُدير شريطاً عليه موسيقى ناعمة، وموسيقى ذات نغمات عالية مزعجة، فستجد نفسك تعدّل مفتاح الصوت عند هذه النغمات العالية، وهذا يعتمد

على قوة جهازك وحجم السماعات. إذا كانت السماعات كبيرة فستتحمل الذروات المزعجة دون صعوبة، أما إذا كانت صغيرة، فيجب عليك خفض الصوت لأن الموسيقى ستكون مشوشة في الأجزاء عالية النغمات.

لسوء الحظ أن النظام الجنسي البشري لديه سماعات صغيرة، وحين تصل الإثارة الجنسية درجة معينة، فإنها آلياً تهبط ثانية، وهذا يفسر بوضوح شديد كيف تجنبت الفتاة في رواية هوبكنز الإغتصاب، حين ألقت الأغطية جانباً وأظهرت نفسها عارية تماماً، لقد فاجأت الرجل، فتشوشت رغبته الجنسية وتلاشت. وهذا يوضح أيضاً لماذا كان مشهد الفعل الجنسي في "كاندي" ليس هو ذورة الكتاب. وهذا هو السبب في أن كثيراً من الناس يجد الفعل الجنسي مخيباً للآمال إذا قورن بالمقدمات قبل الدخول في الممارسة.

بالطبع هناك أسباب عديدة لهذا، أهمها أن البشر كسالى ولا يطورون قواهم الشعورية. فمعظمنا يرى في الحياة إندفاعاً جنونياً متواصلاً. كان شعراء القرن التاسع عشر - وردذ ورث وكيتس وآخرون - يرون ضرورة العودة إلى الطبيعة، فالهدوء أو العزلة يسمح لهم بتطوير قواهم الشعورية ثانية، ويخفف عنهم، ويتركهم في حالة من الراحة والإدراك كان لا يمكن أن يشعروا بها وسط المدن. هذا ماأحسه لورنس حول الجنس، هناك الكثير من الجنس في الحياة الحديثة، ولكنه في معظمه جنس ضحل سطحي، جنس يتعلق بالأعصاب.

وهذ مانعنيه حين نقول عن مارلين مونرو أو بريجيت باردو أو صوفيا لورين، إنهن رموز جنسية، بمعنى أنهن رمز للمتعة الجنسية السريعة السهلة. ماترمز إليه مارلين مونرو يمكن رؤيته في اللقطة الساكنة من فيلم "هرشة السنة السابعة"، وهي تقف وتنورتها تطير حول وسطها. هذا هو الجنس في شكله الخام، رغبة محضة، يوقظ رغبة الذكر، ليمسكها ويمتلكها في اللحظة، وحين ينتهي الفعل، لا يتبقى شيء يُعمل أو يُقال. وهذا مااعترض عليه لورنس، شعر بأن هذا إضاعة تامة للدافع الجنسي، وهو المعادل لصبه في مصرف، أو مثل سكير يتجرع بعض النبيذ النادر لهدف وحيد هو أن يسكر لدرجة اللاوعي بأسرع وقت. وهذا ماأصبح الجنس يعنيه في العالم الحديث، وهذا مانشعر به حين نقرأ فرانك هاريس أو هنري ميللر أو كاندي أو مشاهد الجنس في روايات جيمس بوند. إن استشهادي بلورنس لا يعني أني أعتبره نوعاً من المخلص الجنسي، فأنا أحد رواياته، تقريباً، لا يمكن قراءاتها، لكني أعتقد أننا يمكن أن نتعلم منه الكثير. يقول في إحدى قصائده:

مالم تستطع جميع النساء أن تعطيه لك

امرأة واحدة تستطيعه

ليست هذه بمجرد موعظة في الولاء والإخلاص، وأشك كثيراً أن لورنس كان مهتماً بالإخلاص، لكن يستحق أن نأخذ تجربته في الإعتبار في هذا الموضوع. كان لورنس ابن عامل في مناجم الفحم في

نوتنجهام، وأحد أفراد أسرة كبيرة، كان طفلاً مريضاً، وحين أصبح مدرساً ساءت صحته أكثر. ثم قابل زوجة أحد زملائه - فريدا ويلكس ابنة بارون ألماني - وثبت أن هذا اللقاء كان نقطة تحول في حياته. حين تركت زوجها وأطفالها لتعيش مع لورنس، كانت إحدى رواياته قد قُبلت للنشر، فاستطاع أن يستغنى عن وظيفته كمدرس. وهكذا أصبحت "فريدا" تقدم للورنس أكثر من شريكة جنسية. هذه العلاقة مع الارستقراطية، أعطته إحساساً معيناً بأن يترك حياته السابقة وراءه. (اعتاد أن يكتب لأصدقائه على ورق كتابة متوج، مع ملاحظة تقول: زوجتي ابنة بارون ألماني). تتفق معظم آراء من عرفوا فريدا بأنها شديدة الجاذبية الجنسية، بل ان أحد الكتاب تمادى ووصفها بأنها "إلهة الجنس"، وهكذا فمن وجهة النظر الجنسية وحدها فإن فوز لورنس بها مهم جداً (حيث أن تجربته الجنسية قبلها كانت محدودة جداً). يضاف إلى ذلك عناصر أخرى، درجتها الإجتماعية، هجرانها لزوجها وأطفالها، ولذا فقد أصبحت تمثل له شيئاً ما أعمق من الجنس، فقد قدمت له النجاح وحققت أحلام يقظته. وقد سجّل "هنري سافيج" أحد أصدقاء لورنس، التحول الكامل الذي حدث له فيما بين ١٩١١-١٩١٤، من كونه شخصاً خجولاً هادئاً، إلى شخص صاحب رسالة، متدين لا يتحمل أن يخالفه أو يكذبه أحد.

صحيح أن المراة دائماً تقدم النجاح للرجل، وهذا هو مادفع كازانوفا وهاريس للإستمرار في محاولة امتلاك النساء واحدة تلو الأخرى. لكن المرأة التي تعطي نفسها للرجل ببساطة وبصفة عارضة، فإنها تقدم القليل له، خاصة إذا كانت معتادة على ذلك. وهكذا لا يمكن القول أن إمتلاك امرأة يقدم النجاح للرجل. السؤال المهم هو: مامقدار هذا النجاح؟ وهذا هو المعنى الحقيقي وراء الكلمات: مالم يستطع إعطاءه كل الناس، فإن امرأة واحدة تستطيعه.

إن لورنس يعني أن مائة امرأة يمكنهن إعطاء الرجل شيئاً ما، لكن ذلك الشيء لا يغيّر الرجل، إنه لا يرفعه إلى مستوى جديد من الإيمان بنفسه، إن امتلاك لورنس لفريدا رفعه بالفعل إلى مستوى جديد من الإيمان بالنفس، وهذا بلاشك أحد الأسباب الرئيسية في شعوره بأن الجنس أكثر من مجرد الإمتلاك الوقتي لجسد الأنثى. وهذا ماأراد التعبير عنه في عشيق الليدي تشاترلي، حين قدمت تشاترلي للحارس ماقدمته فريدا له.

ونأتي الآن إلى مسألة أكثر غرابة ... كان الناقد ج.ويلسون نايت أول من أشار إلى أن بعض روايات لورنس تتضمن علاقات جنسية منحرفة. وعلى وجه الخصوص ميللوز في عشيق الليدي تشاترلي، وبيركن في نساء عاشقات، فهما يمارسان اللواطة في زوجتيهما المحترمتين، والأكثر طرافة أن لورنس يرى بوضوح أن هذا أمر طبيعي. بل هو أعمق من الممارسة الجنسية العادية. (تناولت هذا الموضوع بتفصيل أكثر في كتابي أصول الدافع الجنسي).

والسؤال الذي يثور سؤال طريف.. حاولت أن أوضح في فصل سابق أن دافع كازانوفا الجنسي ليس بعيداً عن معنى الإنحراف، إنه في الواقع يقع في منتصف الطريق إلى السادية. في هذه الحالة، فإن موقف لورنس من الجنس لابد أن يوضح الميل المعاكس - أي جنس طبيعي أعمق من المألوف - إذن كيف نفسر هذا الدفاع عن اللواط في أعمال لورنس؟.

أحد التفاسير أنه كان لديه ميول جنسية شاذة، كما أوضح هو بنفسه في رسالة إلى هنري سافيج أعرب فيها عن إعجابه بالجسد الذكري. (في الرسائل الكاملة يقول لورنس "أود لو أعرف لماذا يميل إلى الشذوذ كل رجل يقترب من العظمة.. ويحب الجسد الذكري أفضل من الجسد الأنثوي؟). هذه الميول الجنسية الشاذة لا تعني الرغبة العادية للتورط العاطفي مع الرجال. يتضح من كتب لورنس أنه يشعر بالجنس كامتلاك كامل للمرأة، وأن هذا الإمتلاك الكامل لن يكون كاملاً إلا بممارسة اللواطة معها.

ومرة أخرى نواجه بالنتيجة الغريبة أن الإنحراف هو في طبيعة الجنس نفسه. وإذا كان الجنس سطحياً كما في حالة كازانوفا - رغبة محضة للفوز بجسد المرأة - فمن السهل أن ينزلق إلى حدود السادية، لأن المرأة آنذاك لا تبدو كإنسان ولكن كشئ يعطي المتعة.

مع لورنس، مثل هذا الأمر مستحيل، لأن فكرته الأساسية عن الإشباع أن تكون هناك علاقة شخصية عميقة وحميمة بين الرجل والمرأة، ومع ذلك فإن لورنس يرى في الجنس معنى الحرب، وهكذا تصبح اللواطة فعلاً جديداً للفوز تغوص بالمرء أعمق من الجنس العادي.

ولابد أن أوضح بالضبط ماأود قوله. إذا كنت قريباً جداً من موضوع معقد، فأنت تميل بشكل آلي إلى تبسيطه. هناك قصة "لراماكريشنا" عن مجموعة من العميان وقفوا حول فيل، أحدهم أمسك بخرطومه وقال: إنه يشبه التنين، وأمسك الثاني بساقه وقال: إنه يشبه جذع الشجرة، وثالث أمسك بذنبه وقال: إنه يشبه قطعة الحبل، ورابع وقف تحت بطنه وقال: كلكم على خطأ.. إنه يشبه حقيبة جلدية كبيرة.

مثل من علم الفلك قد يجعل فكرتي أوضح. كل الفلكيين القدماء قد افترضوا أن الشمس تدور حول الأرض، وكان عليهم أن يفسروا حركة النجوم بفهم النظام الأكثر تعقيداً، ولم يستطيعوا، حتى جاء شخص يقول أن الأرض والكواكب الأخرى تدور حول الشمس، فأصبح علم الفلك سهلاً والتفسير واضحاً.

ليس هناك موضوع أُسيءَ فهمه مثل الجنس، قصة العميان والفيل تشبه وجهات النظر حول الجنس.

اعتقد الإغريق القدامى من عبدة ديونسيوس أنه الطريق الموصلة إلى الله. القديس بولس اعتقد أنه الخطيئة الأولى التي أُدين بها كل البشر، وفرويد اعتقد أنه الدافع الكبير الغامض وراء كل النشاط البشري، وأن جميع الإضطرابات العقلية مرجعها للإحباط الجنسي. د.هـ. لورنس، اقترب من وجهة نظر اليونانيين القدماء، ورأى فيه طريقاً للوصول إلى دوافع الخلق البدائية في الكون.

والمثقف المتوسط العادي في عصرنا يعتقد أن هناك ضجة كثيرة قائمة حول الجنس، بينما هو نوع من المتعة واللهو، وكله أمر طبيعي، ويجب أن نتوقف عن الحديث عنه ونكتفي بممارسته.

ولكن، أكثر الآراء انتشاراً هو الرأي الذي يمكن تسميته بوجهة النظر الساذجة. وحسب وجهة النظر هذه، فإن الجنس شيء لا يجب أنْ نناقشه كثيراً، ويجب أن يقتصر على غرفة النوم، وهدفه الأساسي أن ينتج أطفالاً أصحاء، ولكن في قرننا العشرين الفاسد نسي الناس هذا الأمر، وسمعنا كثيراً عن الانحرافات الجنسية متعددة، وعن غير المتزوجين الذين يعاملون الجنس كأمر عرضي طارئ.

هناك حقيقة في كل رأي من هذه الآراء، بالضبط كما أن هناك حقيقة في كل فكرة عن الفيل. لكن الرأي الأخير هو أكثر الآراء زيفاً وأعظمها سطحية، فهو يرى في الجنس موضوعاً محدداً واضحاً ولطيفاً.

وذلك يذكرني بفقرة في مسرحية شو ميجور باربارا، حين يتحدث ملك السلاح إلى ابنه عن الوظيفة التي يعتزم ممارستها:

- هل هناك شيء تعرفه أو تهتم به؟

- أعرف الفرق بين الصواب والخطأ.

- ماذا؟ لا مقدرة على العمل، ولا معرفة بالقانون، ولا ميول فنية، ولا رغبة في الفلسفة، فقط معرفة بسيطة للسر الذي أتعب كل الفلاسفة وحيّر المحامين، وأربك رجال الأعمال وأفسد معظم الفنانين.. سر الصواب والخطأ. أيها الرجل العبقري أنت سيد الأسياد. إلخ.. وفي الرابعة والعشرين أيضاً.

وذلك ينطبق على المدرسة الساذجة، التي لا ترى في الجنس أية صعوبة. اسأل سؤالاً بسيطاً مثل: ماهو الإنحراف الجنسي؟ تجد نفسك في متاهة من التناقض النفسي.

وبصراحة الجنس لا يمكن شرحه بطريقة بسيطة وواضحة، وحين نناقشه مطولاً كما فعلنا، نخرج بنظريتين لا ثالث لهما:- الأولى: أن الجنس وهم كبير كأغنية السارينات في الأساطير اليونانية، يجر الرجال كالفراش إلى لهب شمعة، ولكن أيضاً شبيه بالغريزة التي تدفع الفراش إلى النار، فهو أعمى تماماً. وبالنسبة للهدف، فليس لديه أي أهداف أكثر من أهداف هطول المطر أو الرياح تهز الأشجار. الثانية: بالرغم من أن البشر قد لا يعرفون لماذا كل هذا، فإن الدافع الجنسي يعرف مايريد. فهو يعامل البشر كالجنود على رقعة الشطرنج، لكن للعبة هدف لو كان لدينا الذكاء لفهمه.

أولا: نحن نوافق على أن الحياة لا معنى لها، وأن البشر يبذلون أقصى مافي وسعهم، في موقف سخيف جميل الذي هو الحياة. ثانيا: وهو ماأفضله، أن البشر مُلامون لأنهم ذوو عقول تافهة وغبية.

كل إنسان عاش على هذه الأرض، كان عليه أن يواجه المشاكل نفسها. الحياة لم تكن سهلة قط، سواء للأغنياء أو الفقراء، للأذكياء أو الأغبياء، للموهوبين أو غير الموهوبين، وكل فرد أغراه التبسيط الشديد فاعتقد أن الحياة ستكون رائعة لو تحققت بعض الشروط البسيطة.

فالفقير يعتقد أنه لو أصبح غنياً لحُلت كل المشاكل،ولكن الرجل الغني يعرف أفضل منه أن ذلك ليس صحيحاً. من الأفضل طبعاً أن تكون غنياً، لكن ذلك لا يحل كل شيء.

هناك شيء آخر خطأ في الحياة البشرية، شيء أعمق من الشروط المادية.

المسيحيون الأوائل أدركوا ذلك، واخترعوا لفظ "الخطيئة الأولى أو الأصلية" لكل ماهو خطأ. لكن هذه الفكرة جلبت نفعاً أقل وضرراً أكثر.

يمكنني أن أقدم هنا تفسيري للموقف، معترفاً بأني قد أكون مخطئاً كأي فرد آخر. لكنه تفسير جاء نتيجة لملاحظاتي وقراءاتي عن الحياة البشرية.

يبدو لي أن الجنس البشري ينقسم إلى نوعين من البشر: اللامنتمون، والمنتمون.

معظم الناس يأخذون الحياة كأمر مفروغ منه، وهم سلبيون. صحيح أنهم يكافحون ليظلوا أحياء، لكن هدفهم هو هدف مادي بحت. لا يتساءلون قط عن معنى الحياة وحتى لو تساءلوا فهم يقبلون الإجابات الجاهزة سواء التي في الأديان أو المذاهب كالشيوعية مثلاً. وهم يميلون إلى اعتبار الوجود قضية مسلماً بها، ويشعرون أن الحياة بلا معنى.

لو كان هؤلاء هم النوع النوحيد من البشر لما كانت هناك حضارة بشرية، ولكانت حياتنا ساكنة مثل حياة النمل أو النحل. نحن ندين بحضارتنا إلى النوع الآخر من البشر، اللامنتمين، الذين لم يأخذوا الحياة قضية مسلماً بها، ولديهم الرغبة لمعرفة معنى الحياة، ويرون أن رجال الدين والسياسيين يعرفون القليل مثلهم تماماً، وعليهم أن يجدوا الإجابة وحدهم.

لو كان المنتمي يشبه رجلاً يملك سيارة ويعرف كيف يقودها، فاللامنتمي هو الرجل الذي يريد أن يعرف ماتحت غطاء هذه السيارة وكيف تعمل. لديه تعطش ليعرف أكثر، هو لا يحب أن يشعر أنه مجرد عبد سلبي لكون لا يفهمه. يريد أن يكون مسئولاً عن حياته، يريد أن يفهم، لا يستطيع أن يدع حياته تسير به كراكب في حافلة، يريد معرفة أعمق ومعنى أعمق بالهدف.

وهو يرى أن نموذج "العبد" ضروري للعالم، كالعمال الذين يذهبون إلى المصنع كل يوم ولا يأملون بأكثر من أجورهم، ومعاش تقاعدي بعد الستين. هذا النوع من الحياة يبدو له شكلاً من الموت الحي، لكنها توجد من أجل أناس مثله - شعراء وفلاسفة وعلماء وكتاب - للناس الذين لا يرضوون الحياة بشكل سلبي، وتستحوذ عليه فكرة واحدة: هناك معنى للحياة، لو استطعت فقط أن اكتشفه.

لا يمكن القبول بأن تكون الحياة معركة دفاعية فقط لإبعاد الذئب عن باب البيت. كل مفكر أو شاعر عاش على الأرض يشعر بأنها شيء آخر غير ذلك.

إذا نظرت من نافذة، فانت تشعر أن العالم لا يهتم، سواء وُحدت أو لم توحد، فالحياة تسير لا تهتم بأحد، مثل الرياح. وانظر إلى كلبك، إنه يأخذها قضيةمسلمة، فالحياة لا تحمل معنى أكثر من مصمصمة عظمة أو مطاردة كرة. وتلك هي النقطة. الحيوانات ليس لديها معنى لهذا الهدف وراء الوجود. حتى بالنسبة للإنسان، فالدين والشعر والعلم عمرها لا يتجاوز بضعة آلاف فقط من السنين، بينما الكلاب وُحدت قبل وجود الإنسان بعشرين مليون سنة. فالأمر كله حديث تماماً.

ولقد وصل الإنسان إلى وضعه الحالي بتتبعه هذه الومضات من المعنى، بإتباعه غريزته التي تخبره أن هناك في الحياة ماهو أكثر مما تراه عيناه. ولقد تتبع هذا الحدس لعدة آلاف من السنين، رافضاً أن يصدق وجهة النظر العامة القائلة أن الحياة لا تهتم سواء وُجد أولم يوجد، وأن كل شيء يسير بلا هدف.

برغم أنني قلت أن هناك نوعين من البشر: المنتمي واللامنتمي، فالحقيقة أن كل واحد منا يحتوي شيئاً من الإثنين. فلا أحد منتم تماماً أو لا منتم تماماً. كل فرد له حرية الإختيار لأن يكون هذا أو ذاك، وكل فرد له لحظات لإنتمائه حين يبدو واضحاً أن الحياة يمكن أن تكون أكثر جمالاً وإثارة إذا عرفنا كيف نغيّرها. لسوء الحظ، أن على الفرد أن يمارس العمل المرهق للمعيشة اليومية، ويتعامل مع مشاكلها التي تحتاج إلى انتباه كبير، ولابد أن يتمتع بقوى عقلية ثرية جداً ليوفر كثيراً من طاقته إذا أراد تتبع سؤال مثل ماذا تعني الحياة؟

وحين نرى حيوات هؤلاء الرجال الذي أرادوا فهم معنى الحياة، فإننا نصاب بيأس أكثر. فمعظمهم قد انتهى إلى الفشل، وكثيرون قُتلوا أو ماتوا مجانين أو انتحروا.

هل يلوم أحد بعد ذلك الإنسان إذا أراد أن يكون منتمياً طوال عمره!؟

إن حياتنا الجنسية هي صورة مصغرة لهذه المعركة.

صحيح أن قليلاً من البشر ووجهوا بالإختيار، ولكن كل بالغ بلا استثناء، يعرف معنى الشعور بالإثارة الجنسية بحيث يبدو له أن لاشيء يهم غيرها، وكل فرد عرف الإحساس بالصحوة أو التخلص من الوهم الذي يتبع ذلك.

قد يحل المشكلة برمتها لو استطعنا القول: الجنس هو مجرد شهوة أخرى، مثل الحاجة إلى الطعام والشراب، ولكن من الواضح أن ذلك لا يحل المشكلة. فقليل من البشر هم الذين تجرفه العواطف ويتملكهم الحماس لمنظر وجبة جيدة، تعطيهم الإحساس بالإشباع بالدرجة نفسها كالجنس.

فالشاب الذي يشعر للمرة الأولى بأن الفتاة التي يحبها هي أيضاً تحبه، يعرف أن هذه الشهية لا تشبه اطلاقاً الحاجة إلى الطعام أو الشراب، إنها على مستوى أعلى. إنها تشبه الدافع الذي يجعل الشاعر يحب الطبيعة أو العالم يحب المعرفة.

ويتضح هذا أكثر حين ننظر إلى الإنحراف الجنسي. فالإنحراف الجنسي قد انتشر للسبب نفسه الذي يدفع الإنسان لتأليف الموسيقى أو إقامة تليسكوبات صخمة، إنه الدافع للغوص أعمق وأبعد، الحاجة لكثافة أكبر في التجربة.

الإنحراف الجنسي قد يكون مرعباً ومقرفاً، لكنه لن يوجد لو كان الإنسان مجرد حيوان، لأن الحيوانات لا تمتلك هذه الغريزة الغريبة لأن تغوص أعمق وأبعد.

الإنحراف الجنسي كشهية الإنسان للمعرفة، لكنه ينحدر بكثافة إلى مستوى منخفض بسبب سوء الفهم والجبن.

إنه دليل يحتوي على تناقض ظاهري بأن الحياة لا معنى لها، وأن الإنسان في أصله نبيل.

قصة موباسان التي ذكرتها "المجهول" تشير إلى النتيجة نفسها. شهية الرجل الجنسية ليست كشهيته للطعام، إنها أقرب إلى الدافع الذي يجعل الناس تكتب الشعر، فهي تعتمد على الخيال والوحي والإلهام وتتلاشى كفقاعة لو ثُقب هذا الخيال أو الإلهام.

ملاحظة باربوس "ليست امرأة التي أريدها، بل كل النساء" توضح الشئ نفسه. حين يكون الإنسان جائعاً، لا يقول: "ليست قطعة لحم التي أريدها. بل كل اللحوم". إن مايريده هو قطعة لحم جيدة. لكن الشهية الجنسية تميل إلى التحليق فوق النساء الحقيقيات تجاه النساء النموذجيات. فالواقعية تميل إلى تخييب أمل هذه الشهية.

لو افترضنا أن كل ذلك صحيح.. فعلى ماذا يدل؟

افترض أننا وافقنا على أن الدافع الجنسي للإنسان، ليس غريزة بسيطة لحفظ النوع، ولكن مسألة أكبر تتعلق بالخيال.. فإلى أي مدى يقودنا ذلك؟

خلال التاريخ الطويل للبشرية، فإن الإنسان قد تمزق بين دافعين: خوفه وإرادته بالفوز.

خوفه يقول له: ابحث عن الأمان وتمسك بالحقائق الثابتة ولا تهتم بالأحلام.

وإرادته في المغامرة والفوز تقول له: لا تهتم بالحقائق فلا توجد حقائق ثابتة، فهي تبدو مختلفة تبعاً للزاوية التي تنظر منها، اتبّع الأحلام، فهي تصبح حقائق لأولئك الأشداء الذين يؤمنون بها.

ولكن في فترة مبكرة من تاريخه، كان الإنسان عبداً للحقائق، وكان عليه أن يقضي معظم وقته في حل مشكلة بقائه حياً. والآن لأول مرة في تاريخه، هناك إمكانية لأن يكون حراً في اختياره بين الحقائق والأحلام.

عن طريق الميكنة والآلات سنصل قريباً إلى مرحلة لا يعمل فيها الإنسان أكثر من أربع وعشرين ساعة في الأسبوع، ومعرفتنا المتزايدة في علم النفس تمكننا من جعل البشر يتفهمون هذا الموقف. لا

معنى أن تكون حراً إلا إذا فهمت ماذا تعنى الحرية. وسيأتي يوم يفهم فيه معظم البشر ماهم ومايمكن أن يصبحوا عليه.

لو ألقينا نظرة على بعض الشعراء وأصحاب الرؤى في القرن التاسع عشر فسيغدو ماأقوله أكثر وضوحاً. فرحال مثل: وليم بليك وفان حوخ وشيللي، كل منهم كان لا منتمياً وصاحب أحلام وأوهام. كل منهم اعتقد أن الإنسان يمكنه أن يصبح ملاكاً لو فهم نفسه. وثلاثتهم ابتلوا بمصاعب مالية طوال حياتهم، نهاية فان حوخ بالإنهيار العقلي ثم الإنتحار كانت بسبب قلقه من كونه عالة على أخيه الذي كان ينفق عليه بينما هو يرسم لوحات لا يشتريها أحد.

حين ننظر إلى القرن التاسع عشر والأعمال العظيمة التي أنتجها، يبدو عبثاً أن معظم عباقرته قضوا حياتهم معذبين بسبب المتاعب المالية، حتى أن بتهوفن وفاحنر ونيتشه كانوا يتساءلون غالباً من أين ستأتي وجبتهم الغذائية التالية. كان النجاح بالتأكيد، سينقذ نيشته وفان حوخ من الجنون، ويمد في عمر بيتهوفن عشرين سنة أخرى، لكن المتاعب المالية هزمتهم، كما هزمت معظم الفنانين الكبار في القرن التاسع عشر.

ونأمل أن يكون مثل هذا الزمن قد ولى، إن إنجازات الإنسان العلمية ستخلصه على الأقل من هذا الحجر حول عنقه، ويمكننا أن نتخيل يوماً في المستقبل يتابع فيه اللامنتمون وأصحاب الأحلام حياتهم دون الخوف من الموت جوعاً.

ماذا يحدث حين يبدأ الإنسان يفهم بوعي مصيره؟ حين يدرك بوعي أن عمله هو أن يفهم الحياة، وأن يكتشف ما المفروض أن يفعله بها.

قد يقول معترض: ماالدليل على أن مثل هذا الوقت يقترب؟ قد يستغرق مليون سنة.

ولكن الدليل يبدو أقرب من ذلك بكثير، لقد أعددنا لمثل هذا الزمن. ويستحق هنا أن أشير إلى عالم واحد من أكثر علماء النفس نبوغاً، وهو "ابراهام ماسلو". تدرب "ماسلو" كعالم نفس فرويدي، وفرويد بالطبع مال إلى إرجاع كل مرض عقلي إلى أسباب جنسية، وعنده لا يوجد دافع أساسي أعلى من الدافع الجنسي.

لكن حين كان "ماسلو" يجري تجاربه على القرود، لاحظ أن لديها حاجة للمعرفة من أجل المعرفة ذاتها. فقد كانت تحل ألغازاً معينة من أجل الطعام، مثلاً يوضع إصبع من الموز في صندوق بغلاف معقد الفتح، وتجاهد القرود لفتح الصندوق وتنجح، لكن حين لا يوضع إصبع الموز في الصندوق، فإن القرد يستمر بالقيام بحل لغز فتح الغطاء للمتعة وحدها. ثم كان لديه مريضة، جعلته يعيد حساباته كلها مع نظرية فرويد. كانت المريضة فتاة ذكية، مديرة مصنع آيس كريم، وكانت تلميذة واعدة في الجامعة، وكانت تأمل أن تواصل دراستها البحثية. لكن حصل ركود اقتصادي، وأصابت البطالة أفراد

عائلتها، وعُرض عليها في هذه الظروف عمل بأجر جيد في مصنع للآيس كريم. قبلته لمساعدة عائلتها، لكن أصبحت حزينة وازداد توترها حتى توقفت العادة الشهرية عندها، وبدأت تنتابها نزعات انتحارية. وهنا ذهبت إلى "ماسلو"، وبناءً على نظرية فرويد، كان عليه أن يكتشف الخطأ في حياتها الجنسية. لكنه لم يفعل، ونصحها أن تواصل دراستها في مدرسة ليلية وقت فراغها. واختفى مرضها بسرعة كبيرة.

هذه المريضة، ثم تجربته مع القرود، قادت ماسلو للشعور بأن الجنس ليس هو الدافع الأساسي للبشر - أو حتى الحيوانات. فالبشر لديهم حاجة ودافع مهم للمعرفة - يساوي الدافع الجنسي، بمعنى أن لديهم دافعاً للتطور والتقدم.

وما افترضه في هذا الكتاب هو خطوة تالية منطقية.

إن الدافع الجنسي نفسه ليس بمجرد غريزة لحفظ النوع، إنه أكبر من ذلك بكثير، إنه جزء من دافع الشاعر لدى الإنسان، دافع التسامي، ولا يمكن فهمه إلا من خلال هذ الإلحاح بأن يصبح الإنسان شيئاً أكثر من إنسان.

فالمرض الجنسي في عصرنا، والميل المتزايد نحو الممارسات الجنسية، والعنف الجنسي، لا يمكن فهمهما إلا في ضوء هذه الحاجة الغريبة في أن يصبح الإنسان أكثر من إنسان.

وهذا يقود منطقياً إلى نتيجة ... لقد بدأت بالتساؤل ماذا ستكون نتيجة هذا الميل المتزايد نحو الحرية الجنسية، وهو في ذاته سؤال لامعنى له. يمكننا فقط القول بأن المراهقين سينظرون إلى الجنس كقضية مسلم بها أكثر وأكثر. كما أن التجربة الجنسية ستبدأ في سن أكثر تبكيراً، بمجرد أن يقدر الجسد على الممارسة في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشر.

وسيعتبر المراهقون أن الفعل الجنسي طبيعي مثل القبلة ولا تتبعه أية عواقب.

ولا يوجد سبب لأن يقود كل هذا إلى إنهيار أخلاقي.

في النرويج مثلاً، يعتبر الجنس أمراً عادياً لمن هم تحت العشرين، ولن يرفع الوالدان حواجبهما دهشةً إذا أمضت ابنتهما نهاية الأسبوع في كوخ للتزلج مع صديقها. ولم يؤد هذا إلى إرتفاع حاد في نسبة الأطفال غير الشرعيين، أو إلى الأمراض الجنسية أو جنوح الأحداث، ولا يوجد سبب يدعو إلى ذلك.

فالدافع وراء ذلك دافع طبيعي معقول، ولا يوجد سبب ألا يؤخذ هذا الموضوع كأمر مفروغ منه في بلاد الغرب الأخرى.

لكن كل هذا فقط إجابة عن نصف السؤال. فالحرية الجنسية في حد ذاتها ليست جيدة ولا رديئة. إنها تعتمد تماماً على موقف الناس الذين تخصهم. هل يريد الناس الحرية الجنسية من أجل أسباب سلبية أو إيجابية؟ هل يحاولون فقط إسقاط سلطة الوالدين؟ أو أنهم يريدون أن ينظر إليهم المجتمع كرجال

بالغين - أتكلم عن المراهقين والشباب - يتحملون المسئولية وعليهم أن يختاروا؟ يقوولون إن هذا بالفعل مانحتاجه.الإدراك بأننا أحرار في أن نختار. أليست هذه هي المشكلة الحقيقية للمراهق والشاب اليوم.

وأنا أكتب هذا الكتاب وقعت حادثة: إذ وضع مراهق شيئاً ما على خط السكة الحديد، فخرج القطار عن الخط ومات السائق. وقام بعض المراهقين قبل عيد القيامة، بشغب في حديقة عامة، فدمروا كل شيء، المقاعد والأشجار والزهور.. الخ.

والسؤال: لماذا يقوم شباب في سن الخامسة عشر بالتدمير بهذا الشكل؟ والجواب: بسبب الحرية المتزايدة. التمرد يبدأ الآن في سن مبكرة، الصغار يمارسون احتجاجهم ضد سلطة الآباء وكل عالم الكبار. منذ أربعين سنة كانوا يخافون القيام بذلك برغم رغبتهم، لكن الحرية المتزايدة في المجتمع دمرت الخوف دون أن تدمّر التمرد. فالحرية المتزايدة لها جانبها السيء أيضاً.

الحرية مدمرة إذا لم تصاحبها المعرفة والشعور بالمسئولية.

وأعتقد أن التعلم بالتفكير بالجنس، بالشكل الذي أوضحته، يمكن أن يعلّم الناس معنى حريتهم.

وقبل أن أنهي هذا الكتاب، سأحاول أن أوضح تماماً هذه النقطة:

هناك حالة تحوّل مضاد ذكرها "وليم جيمس" في كتابه "أنواع من الخبرة الدينية" عن شاب أنفق ثروة كبيرة خلال سنتين أو ثلاث، ووجد نفسه معدماً خالي الوفاض. وذات يوم قرر الإنتحار. وذهب إلى مكان خال ليقوم بذلك. وحدث أن التلة التي وقف فوقها كانت تشرف على أرض كانت له وباعها ليسدد ديونه. جلس هناك يحدق فيها ساعات، ثم فجأة قفز عن الأرض تنتابه مشاعر حادة ومرحة، لقد وجد الحل، كل هذه الأرض ستعود إليه ثانية. وبدأ يقوم بأعمال موقتة في أطراف المدينة، لقاء عدة بنسات، ودائماً يطلب من صاحب العمل أن يعطيه طعاماً كشرط عند العمل، لكي يتجنب إنفاق أجرته. واقتصد نقوداً كافية ليشتري قليلاً من الماشية التي باعها وحقق ربحاً، وانتهى الأمر بأن أستعاد كل أراضيه التي فقدها، وحين مات بخيلاً كانت ثروته في البنك كبيرة.

الجزء المهم في قصته، هو الجزء الذي لا نعرفه: ماالذي دار في ذهنه وهو جالس فوق التل؟

كل شخصيته قد تغيّرت فجأة، كان سكيراً وضائعاً، والإنتحار هو النتيجة المنطقية لهذا الموقف السلبي تجاه الحياة: والآن يُدرك فجأة أنه يمتلك إرادة وحرية وعليه أن يستخدمهما.

من الطبيعي للحيوانات أن تكون سلبية، خاصة الأليفة منها، التي تنظر لسيدها كإله يتحكم بمصيرها.

ولعدة قرون ماضية كان معظم الرجال سلبيين للسبب نفسه. علمتهم الكنيسة أن عملهم الوحيد هو إطاعة أوامر الدين المسيحي. وحين بدأ ينهار الدين المسيحي، ظلت السلبية التي لازمتهم ملايين السنين، لاصقة بهم، لم يستطع أن يلقي بها الإنسان بسهولة، ومال إلى الضياع في الحياة.

أحد الأسباب الرئيسية لهذا الموقف السلبي المستسلم التائه، هو صعوبة السيطرة على عواطفنا، خاصة في مرحلة الشباب. فالحياة سلسلة من العواصف العاطفية، واعتدنا أن نستسلم لهذه العواصف بالضبط كما نقبل حالة الطقس. وعند منتصف العمر، ندرك أنه يمكننا السيطرة على هذا الجو الداخلي، لكن الوقت يكون متأخراً. لقد اعتدنا بشكل كبير على الإستسلام.

قد يقال إن الإنسان نادراً مايواجه مآسي تجعله واعياً بحريته، والحالة التي ذكرتها عن الشاب الذي أصبح بخيلاً، حالة غير عادية، وبما أن الحياة رتيبة ومملة، فليس من المدهش أن نجد صعوبة في استخدام حريتنا، أو حتى ندرك أننا نمتلكها.

وأقول رداً على ذلك: من بين جميع الخبرات البشرية، الجنس هو الأقدر على إعطاء الإنسان معنى للحرية.

في بداية الحرب العالمية الثانية، كنت في التاسعة من عمري، واستطيع بوضوح استرجاع الإحساس بالإثارة والسعادة التي سببتها. لم تكن إنجلترا مستعدة للحرب، وكان هناك توقع بالهزيمة، ومع ذلك كان كل فرد أسعد مما كان عليه منذ سنوات.. لماذا؟

لأن التحدي المفاجئ جعل الناس يعون بحريتهم.

فجأة أصبحت الحياة مليئة بالإحتمالات المثيرة، وعرف الجنود أنهم قد لا يرجعون، لكنهم، على الأقل، يذهبون لمكان ما ليقوموا بعمل مهم.

طبعاً لا يوجد مايمنعهم من أن يعيشوا حياة مثيرة وقت السلم، أي واحد منهم كان بإمكانه العمل على سفينة شحن، أو يذهب لتسلق الجبال، لكنهم سلبيون جداً، ينقصهم الكثير من الخيال.

الجانحون الذين دمروا أحواض الزهور، يعبّرون عن تمردهم ضد سلبيتهم وحياتهم المملة، إنها محاولة يائسة لإمتلاك حريتهم، لكنها محاولة ليست ذكية جداً لفرد لديه القدرة على التفكير، وهذا ينطبق على أي شخص وصل إلى هنا في قراءته...لا حاجة للحرب، لكي يعرف الناس حريتهم.

ولكي نفهم الجنس لابد أن ندرك أنه حرية صافية تقريباً. وهذا ينطبق بصفة خاصة على المراهقين والشباب. لأن كثافة الخبرة الجنسية في هذا السن لا يمكن استعادتها بعد ذلك. ولا أعني بالخبرة الجنسية الفعل الجنسي نفسه، ولكن كل العواطف التي تثيرها الأنثى في الرجل والعكس بالعكس.

إن الشاب المعاصر يمتلك حرية أكثر من أي شاب في التاريخ، وحين يدرك ذلك، ويعرف كيف يستخدم هذه الحرية، فسيكتشف أنه يستطيع تغيير العالم

كولن ولسون وأعماله

يُعتبر كولن ولسون من أكثر الكتاب الإنجليز شعبية، وأغزرهم إنتاجاً.

ولد في ليستر – إنجلترا سنة ١٩٣١، وترك المدرسة وهو في سن السادسة عشر. بعد سنوات من تنقله في عدة أعمال مختلفة، في مستودع للصوف ثم مختبر، ثم في مصنع بلاستيك، عكف على كتابة أول كتبه اللامنتمي ١٩٥٦، وقد لقي الكتاب استقبالاً نقدياً جيداً، وأصبح في فترة قصيرة من أكثر الكتب رواجاً. ومنذ ذلك الوقت كتب ولسون عشرات الكتب في الفلسفة والسحر والجريمة والجنس، بالإضافة إلى مجموعة من الروايات التي أكسبته شهرة عالمية. وقد ترجمت كتبه إلى عشرات اللغات ومن بينها العربية حيث تُرجم له أكثر من عشرين كتاباً.

وهذه قائمة ببعض أعماله:

أولاً:– الكتب

- اللامنتمي
- دين وتمرد
- عصر الهزيمة
- قوة الحلم
- أصول الدافع الجنسي
- مابعد اللامنتمي
- موسوعة الألغاز المستعصية
- الشعر والصوفية
- القوى الخفية
- راسبوتين وسقوط آل رومانوف
- فن الرواية
- الحاسة السادسة
- رحلة نحو البداية – سيرة ذاتية

وقد ترجمت هذه الكتب إلى اللغة العربية.

- دائرة معارف القتل (بالإشتراك مع بات نيمان)
- براندي الملعونين (مقالات في الموسيقى)
- النسر وأبو مقص (مقالات عن الكتب والكتاب)
- مقدمة لوجودية جديدة
- سجل الجريمة
- برنارد شو
- طرق جديدة في علم النفس
- الباحثون عن النجوم – فلك
- قلعة فرانكنشتاين
- الولوج في العالم الداخلي للنفس
- ضد سارتر

- أسرار
- البحث عن ولهلم رايش
- علم نفس الجريمة
- الحرب ضد النوم - فلسفة جوردييف
- الجنس والشباب الذكي
- سيد العالم السفلي - دراسة لأعمال يونج
- التاريخ الإجرامي للجنس البشري

ثانياً: روايات

- طقوس في الظلام
- القفص الزجاجي
- ضياع في سوهو
- رجل بلا ظل (مذكرات جيرارد سورم الجنسية)
- الشك الضروري
- طفيليات العقل
- القاتل (تُرجمت إلى العربية بعنوان الحالم)
- الإستحواذ
- إله المتاهة
- عالم العناكب

وقد ترجمت هذه الروايات إلى اللغة العربية.

- مقتل تلميذة
- هامة الفضاء
- حجر الفيلسوف
- عالمَ العنف
- الغرفة السوداء
- رواية راسبوتين

فهرســت

فى هذا الكتاب

هذا المراهق أو الشاب يشبه رجلاً يكاد يموت عطشاً فى الصحراء ، رغبته فى الماء لا تحمل أى حب أو عطف ، كل ما يريده هو أن يشربه .

يميل الشباب إلى إبداء الخجل من قوة رغباتهم الجنسية ، وهم لا يعترفون بها من تلقاء أنفسهم أو يجعلونها واضحة للآخرين ، وما يجرى فى خيالهم يظل سراً طوال حياتهم . وفى اللحظة التى يتحدث فيها إلى فتاة ، فإن رغبته الجنسية تتراجع قليلاً حتى لو لم يشعر نحوها بالحنان أو بالرغبة فى حمايتها ، لكن عليه أن يتظاهر بذلك إذا أراد الفتاة ، يحاول أن يتصرف بشكل متحضر ، وإذا كان من النوع المرح فقد يتزوج صغيراً ، لأنه يجد رغبة الفتاة فى الزواج معقولة . وهو يرغب فى أن يرضيها ، وهكذا فإن توحش الرغبة الجوهري ، يغطى بكل أنواع الدوافع الأخرى بالإضافة إلى التقاليد الإجتماعية . ولكن لو أنصفنا فيجب أن نعترف بأن كل هذا التمثيل لا علاقة له برغبة الشاب ، لا يوجد رقة وحب فى شهية الذكر الجنسية ، أكثر مما يوجد فى شهيته من حب نحو طعام عشاء جيد

والعلاقة الجنسية النموذجية لابد أن يكون فيها تناسب معقول من الرقة والرغبة الجنسية ، لكن ليس بالضرورة أن تكون هناك علاقة بين الرقة والرغبة .

***

لقد أصبحت روما حضارة لا تفكر إلا فى أشياء قليلة غير الجنس والحرب – مثلنا تماماً. مورست أشكال الانحراف الجنسى على نطاق واسع واعتبرت أموراً عادية . لقد تزوج الأمبراطور "نيرون" بالفعل غلاماً ألبسوه كفتاة فى احتفال كبير وأبهة فخمة ، لقد ارتكب الزنا بالمحرمات مع والدته بحثاً عن إثارة جنسية . وإن تاريخ الأباطرة "تيبريوس" و "كاليجولا" و "نيرون" مملوء بتفاصيل قذرة من هذا النوع ، وأن معظم الترجمات الشعبية عن هؤلاء تترك أجزاء كبيرة من هذه الأحداث باللغة اللاتينية .

حين يدرس المؤرخون فى المستقبل عالم القرن العشرين ، سيلاحظون مثل هذا الانهيار الأخلاقى العجيب ، وسيرون فى كتب مثل "لوليتا" و "عشيق الليدى تشارلي" و "فانى هيل" وروايات جيمس بوند وغيرها ، وثائق مهمة لهذا الانهيار .

باختصار ، لا شك أن حضارتنا الغربية قد وصلت إلى المرحلة التى كانت عليها روما منذ ألفى سنة

